أسلوب الاحتراس في القرآن الكريم

أمثلته وأغراضه

إعداد

أ.د / محمد السيد سعد محمد

أستاذ التفسير المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بكفر الشيخ - جامعة الأزهر

مُقَدِّمَة:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ ﴿ سورة الكهف آية:١ ، ٢ ﴾. والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ أرسله ربه شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فهو المبعوث بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله فكان – صلى الله عليه وسلم – الرحمة المهداة والنعمة المسداة لهذه الإنسانية كلها .

ثم أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو كتاب رب العالمين ، وحبله المتين ، وصراطه المستقيم ، وهو المنهج الكامل لإصلاح الفرد والمجتمع ، وهو المعجزة الكبرى الخالدة ما دامت السماوات والأرض ، وهو الحجة البالغة . أنزله الله على خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ ، فكشف به ظلمات الجهل وأسباب العذاب ، وفتح به الطريق إلى سعادة الدارين ، وأمر بتدبره فقال : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾(ص:٢٩) ، وتكفل بحفظه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر :٩)

ووعد الله تعالى من اتبعه بالخير العميم حيث قال:﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴾(طه :١٢٣) ، وأوعد المعرضين عنه بنار الجحيم ، فقال: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾(هود:١٩) ، وهو آخر الكتب

السماوية عهداً برب العالمين ، فكل الشر في الإعراض عنه ، وكل الخير في الإقبال عليه ، فطوبى لمن كان حجةً له ، وويلٌ لمن كان حجة عليه ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الإسراء:٩،١٠)

والحمد لله أن من علىَّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان وهى التي مضت من عمرى في هذه الحياة ذقت فيها من نعمته مالم أذقه قط في حياتي وهى نعمة تبارك العمر وتزكيه .

ولما كنت بصدد الإعداد لبحث في علوم القرآن فقد وقع اختياري على موضوع هذا البحث وهو:(أسلوب الاحتراس في القرآن الكريم أمثلته وأغراضه) وقد دفعني لاختيار هذا الموضوع أسباب عدة منها :

أولاً: أن كثيرا من الدراسات السابقة تتحدث عن بلاغة أسلوب الاحتراس من الناحية البلاغية ، فأردت أن أبين هنا أن هذا الأسلوب من المباحث القرآنية الأصيلة ، كما نص على ذلك غير واحد من أئمة التفسير وقد عده الزركشي نوعا من أنواع علوم القرآن في كتابه البرهان في علوم القرآن ، وكذا السيوطي في الإتقان[١] ثانياً: أن من سبقني بالكتابة في هذا الموضوع لم يحقق إلا جزءا يسيراً من الأهداف التي ترمي هذه الدراسة إلى تحقيقها، والمتلخصة بالكشف عن جمال هذا

(١) البرهان للزركشي ٤٦/٣ ، الإتقان للسيوطي ٢٥١/٣ ط/دار الحديث بالقاهرة .

الأسلوب وتبيين مواطن وروده في القرآن الكريم، وما انطوى عليه من أسرار بلاغية وتربوية ودعوية أصيلة.

ثالثاً: أني رأيت أن هناك خلط بين هذا الأسلوب وبين الأساليب القريبة منه في المعنى والغاية، فكان لابد من تحرير القول في ذلك.

رابعاً: استخدام القرآن لهذا الأسلوب في مواطن كثيرة ، الأمر الذي يستدعي الانتباه، ثم الوقوف والتأمل في أسرار هذا الاستخدام.

خامساً: الاعتقاد بأن هذا البحث فيه خدمة لكتاب الله تعالى، وفيه تيسير على طلبة العلم لفهم هذا الأسلوب وإعطاء تصور شامل عنه.

سادساً : الميول والرغبة الشخصية في دراسة القضايا البلاغية في القرآن الكريم.

أهمية دراسة هذا الموضوع

تكمن أهمية أسلوب الاحتراس في القرآن الكريم فيما يأتي:

أولاً: أن هذا الأسلوب يجلّي وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني، ويبين دور البلاغة في الدعوة إلى الله وما تتركه من أثر في نفس المخاطب، ضرورة أنه فن بلاغي ولون من ألوان علم البديع في القرآن .

ثانياً: أن القرآن الكريم يستخدم هذا الأسلوب في موضوعات متعددة شملت العقيدة والشريعة والأخلاق والقصص والأخبار وغيرها، مما يدل على شمولية هذا الأسلوب، وضرورته في ألوان الخطاب وصنوف الكلام.

ثالثاً: أن هذا الأسلوب يجلّي هداية القرآن الكريم، فهو أسلوب يهدف إلى إزالة ما قد يعلق في الأذهان من سوء الفهم الذي يحول بين الإنسان وبين الانتفاع بالقرآن الكريم والاهتداء به.

رابعاً: أن هذا الأسلوب يشكل منهجاً تربوياً، فهو يعلم المرء كيف يحتاط في أقواله وأفعاله.

خامساً: أن هذا الأسلوب يشكل سداً منيعاً في وجه المتربصين بالقرآن الكريم، فهو يضع التدابير الاحترازية ضد الطعن الذي قد يرد على النص القرآني، وعليه فإن هذا الأسلوب يترجم معنى قوله تعالى: [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون].

هذا وقد اقتضت طبيعة هذا البحث تقسيمه إلى مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة .

المقدمة وقد تحدثت فيها عن : أسباب اختيار الموضوع وأهميته ومنهج البحث فيه .

وجاء التمهيد بعنوان : التعريف بمفردات البحث ، وفيه عدة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الأسلوب في اللغة والاصطلاح .

المطلب الثاني : تعريف الاحتراس في اللغة والاصطلاح .

المطلب الثالث : تعريف القرآن الكريم .

وجاء الفصل الأول بعنوان: الفرق بين الاحتراس وغيره من المصطلحات. وفيه مباحث :

المبحث الأول : الفرق بين الاحتراس والتكميل

المبحث الثاني : الفرق بين التكميل والتتميم

المبحث الثالث : الفرق بين الاحتراس والانفصال .

وجاء الفصل الثاني بعنوان أغراض الاحتراس في القرآن الكريم وأمثلته وفيه مباحث :

المبحث الأول : الاحتراس التكميلي

المبحث الثاني : الاحتراس الضدي

المبحث الثالث : الاحتراس المترقي

المبحث الرابع : الاحتراس التهكمي

وجاءت الخاتمة متضمنة أهم النتائج التي توصل البحث إليها ، ثم أتبعتها بثبت للمصادر والمراجع ، وقد كان عملي في هذا البحث على النحو التالي :

١- كتابة الآيات بالرسم العثماني.

٢- عزو الآيات إلى مواضعها من سورها .

٣- ترتيب الآيات القرآنية التي ورد فيها اسلوب الاحتراس بحسب ورودها في المصحف .

٤- التعليق على الآيات القرآنية التي ورد فيها اسلوب الاحتراس تعليقا موجزا ، ويشمل :

أ- بيان وجه ارتباط الآية بالآيات التي قبلها .

ب- بيان المعني الذي تشير إليه الآية الكريمة .

ج- بيان الغرض الذي سيق من أجله الاحتراس في الآية .

٥- تخريج الأحاديث النبوية من مصادرها ،فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما أكتفي بالعزو إليهما أو إلى أحدهما، وإن كان في غيرهما فأذكر من خرَّجه، مع ذكر كلام أهل العلم على الحديث، من حيث القبول والرد .

٦- توثيق الأقوال المأثورة من مصادرها الأصلية.

٧- توثيق الأبيات الشعرية ونسبتها إلى قائليها ، فإن لم أجدها في دواوين أصحابها فمن مظانها من الكتب المتقدمة .

٨- توضيح الألفاظ الغريبة والمصطلحات الواردة في البحث

٩- عند ذكر المصادر لأول مرة في الحاشية لا أتعرض لذكر بيانات

الكتاب وإنما أرجئ ذلك عند الحديث عن فهرس المصادر والمراجع.

هذا وقد حاولت قدر استطاعتي أن يشكل بحثي لبنة في صرح المكتبة الإسلامية ، فإن كنت قد وفقت فلله الحمد والمنة ، وإن كانت الأخرى – وأرجو ألا تكون – فحسبي صدق نيتي وشغفي بالعيش في ظلال القرآن الكريم ، وأسأل الله الكريم أن يجعل عملي صالحا، ولوجهه خالصا وأن يتقبل ذلك منى إنه قريب مجيب.

كما أسأله– جل وعلا– أن يكتب الأجر العميم للوالدين الكريمين ، وأن يرحمهما كما ربياني صغيرا وأن يجزيهما عني خير الجزاء، فقد ذللا لي كل عقبة في تحصيل العلم النافع، وشرحا صدري برضاهما عني ودعائهما لي، فالله الكريم أسأل أن يجزيهما عني خير الجزاء، فإني عاجز عن رد عشر معشار إحسانهما وبرهما.

وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

تمهيد

التعريف بمفردات البحث

وفيه عدة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الأسلوب في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثاني : تعريف الاحتراس في اللغة والاصطلاح.

المطلب الثالث : تعريف القرآن في اللغة والاصطلاح .

المطلب الأول : تعريف الأسلوب في اللغة والاصطلاح

الأسلوب في اللغة : يطلق الأسلوب في لغة العرب على عدة إطلاقات منها : الطريق بين الأشجار ، وللفن وللوجه، وللمذهب، وللشموخ بالأنف، ولعنق الأسد ، ويقال لطريقة المتكلم في كلامه أيضا، وأقرب هذه الأقوال أن يراد بالأسلوب : طريقة المتكلم في كلامه ، أو هو الفن أو المذهب لكن مع التقييد. (١)

الأسلوب في الاصطلاح : تواضع المتأدبون وعلماء العربية، على أن الأسلوب :هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه ، أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك. (٢)

وعلى ذلك فإن هذا التعريف الاصطلاحي للأسلوب يتوافق مع المعنى الأخير لتعريف الأسلوب في اللغة .

ومن هنا فإننا نجد علاقة بين المعنى اللغوي والمعنى اصطلاحي ، وهي : أن الأسلوب عبارة عن الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه .

معنى أسلوب القرآن : وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم ،هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه ،ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به، فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به ، وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر تتعدد بتعدد أشخاصهم ،بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها والفنون التي يعالجها.(٣)

---

(١) لسان العرب لابن منظور ،ج٦ ص(٤٥٣) مادة (سلب) ، تاج العروس للزبيدي ٧١/٣

(٢) دلائل الإعجاز للجرجاني ٣٣٨/١

(٣) مناهل العرفان للزرقاني ج٢ ص(٣٠٢)

المطلب الثاني : تعريف الاحتراس لغة واصطلاحا

عند دراسة المعنى اللغوي للاحتراس لابد من دراسة الألفاظ المترادفة لهذا الفن فقد ورد عند البعض باسم الاحتراز وعند آخرين باسم التكميل وسنحاول في هذا العرض أن نرجع الكلمات إلى أصلها اللغوي من خلال المعاجم ومن ثم محاولة وضع مفهوم لغوي لهذا المصطلح من خلال جذور هذه الكلمات ، ونبدأ بالاحتراس .

الاحتراس في اللغة :

هو التحفظ في انتباه وتيقظ وهو من الفعل احترس ، يقال : حرس الشيء يحرُسه ويحرِسه حرسا : حفظه : وهم الحراس والحرس والأحراس واحترس منه : تحرز ، وتحرست من فلان واحترست منه بمعنى واحد ، أي تحفظت منه [١] وأحرس بالمكان أقام به حرسا، قال رؤبة بن العجاج :

كم ناقلت من حدب وفرز ونكبت من جؤوة وضمر

وإرم أحرس فوق عنـــز وجدب أرض ومناخ شأز [٢]

ومنه الحرسي وهم حرس السلطان الذين يرتبون لحفظه وحراسته ، والاحتراس دفع الإيهام وقيل هو ان تســرق الشــاة وتؤخــذ مــن المرعى . [٣]

أما الاحتراز فهو من حرز ، يقال : أحرزت الشيء أحرزه إحرازا إذا حفظته وضممته إليه وصنته عن الأخذ [٤] .

---

(١) لسان العرب ٤٨/٦ .

(٢) تاج العروس ٢٣٩/٨ والبيت لم أجده في ديوان رؤبة بن العجاج .

(٣) المصباح المنير ٥٣١/١٥

(٤) لسان العرب ٣٣٣/٥

أما التكميل فهو التمام أو الإتمام ، يقال كمل الشيء يكمل وكَمِل وكَمُل وكُمولا أي تم ، وأكملت الشيء أتممته ،والكامل ضد الناقص وفوق التام ، فالشيء يكون ناقصا ، ثم يصير بعد النقص تاما ، ثم يصير كاملا بحيث لا يقبل الزيادة (١)

مما سبق ذكره يمكن القول أن الاحتراس أو الاحتراز أو التكميل في اللغة يعني التحفظ وزيادة الكلام حتى يبلغ تمامه وصيانته عن الأخذ .

من هذا يمكن أن نفهم المعنى الاصطلاحي الذي وضعه علماء البلاغة لهذا الفن بمسميات مختلفة كما سيأتي في البحث إن شاء الله تعالى .

الاحتراس اصطلاحا :

جعل أكثر علماء المعاني : التكميل والاحتراس شيئا واحدا ومن هنا فقد عرفوا التكميل وهو بالتالي تعريف للاحتراس فقالوا " وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم "(٢) ومعنى هذا ان يكون في الكلام – بدون تكميل – بعض ما يلام عليه القائل ، حيث يمكن أن يوهم بما لم يرده ، فيأتي التكميل أو الاحتراس ليزيل هذا الوهم ويضع الكلام في صورته المرادة ويبعد ما يمكن أن يوجه إليه من عيب .

ومن ذلك قول طرفة بن العبد يمدح قتادة بن مسلم الحنفي :–

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الغمام وديمة تهمي (٣)

(١) العين للفراهيدي ٣٧٨/٥ بتصرف

(٢) الإيضاح للقزويني ٢١٢/٣

(٣) ديوان طرفة العبد ٧٩ .

ولما كان نزول المطر بكثرة يؤدي إلى فساد الديار وخرابها فقد احترس طرفة من وقوعه في هذا العيب وأتى بقوله [غير مفسدها] ليزيله ويبعده عن مراده ، ومن هنا فقد عابوا على ذي الرمة قوله :

ألا يا سلمى يا دار مىّ على البلى ولا زال منهلّا بجرعائك القطر [١]

فهذا بالدعاء عليها أشبه منه بالدعاء لها ؛ لأن القطر إذا انهل فيها دائما فسدت . [٢]

وقيل : إنه لا عيب فيه ، فقد دعا للديار بالسلامة في أول البيت ، والدعاء قرينة على إرادة ما لا يضر ، وللشاعر أن يكتفي بذلك ، فلا يحترس ، وله ألا يكتفي به ، فيضم إليه الاحتراس . [٣]

مما سبق يتبين لنا أن الاحتراس والتكميل معناهما : زيادة إطنابيّةٌ في الكلام يَدْفَع بها المتكلّم إيهاماً اشتمل عليه كلامه .

ويكون هذا الاحتراس حينما يأتي المتكلم بكلام يوهم خلاف ما يُريد، ويأتي بَعْدَه بكلامٍ يدفع به ذلك الإِيهام . " [٤]

(١) ديوان ذي الرمة ٥٥٩/١

(٢) الصناعتين للعسكري ٣٩٠/١ ،

(٣) الإيضاح للقزويني ٢٠٩/٣

(٤) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها لعبد الرحمن الميداني ٢/ ٨٤

المطلب الثالث : تعريف القرآن لغة واصطلاحا

أولا: (القرآن) في اللغة: العلماء في بيان لفظة (القرآن) فريقان، فريق يرى أنه مشتق، وآخر يرى أنه اسم علم غير منقول، وضع أول ما وضع اسما لكتاب الله تعالى، فهو جامد غير مشتق.

الفريق الأول: الذين قالوا باشتقاقه، اختلفوا على قولين:

القول الأول: أنه مصدر مهموز، وقد اختلفوا في أصل اشتقاقه :

قيل: مصدر (قرأ) بمعنى (تلا) مرادف للقراءة، كالغفران والرجحان [١] قال تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة: ١٧] أي: فاتبع قراءته.

قال ابن عطية: قرأ الرجل بمعنى تلا، يقرأ قرآنا وقراءة. وفي التنزيل: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء : ٧٨] أي: قراءة الفجر. قال حسان بن ثابت في عثمان بن عفان رضي الله عنهما:

ضحّوا بأشمط عنوان السّجود به ... يقطّع اللّيل تسبيحا وقرآنا[٢]

أي: قراءة [٣].

وقيل: مشتق من (قرأ) بمعنى (جمع)، تقول: قرأت الشيء قرآنا، بمعنى: جمعته، وهو من ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض[٤] .

---

(١) لسان العرب لابن منظور (قرأ): ١/ ١٢٩

(٢) ديوان حسان بن ثابت ١/٢٣٠

(٣) تفسير ابن جرير ١/ ٩٧ وابن عطية: ١/ ٦٩والقرطبي: ٢/ ٢٩٨

(٤) تهذيب اللغة للأزهري (قرأ): ٩/ ٢٧١ومعاني القرآن للفراء: ٣/ ٢١١ والصحاح للجوهري (قرأ): ١/ ٦٥والمفردات للراغب: ٤٠٢ولسان العرب لابن منظور (قرأ): ١/ ١٢٣والتيسير في قواعد علم التفسير للكافيجي: ١٥٩والإتقان للسيوطي: ١/ ١٦٢.

وقيل: مشتق من (القرء).

وهو أيضا بمعنى (الجمع) قال أبو إسحاق: القرء في اللغة بمعنى الجمع.

قال الماوردي: ولهذا سمي قرء العدّة قرءا لاجتماع دم الحيض في الرحم.

وعن قطرب : قرأت الماء في الحوض: أي جمعته، وقرأت القرآن: لفظت به مجموعا(١).

قال أبو عبيدة : سمي بذلك لأنه جمع السور بعضها إلى بعض(٢).

وقيل: لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض (٣) وعن الراغب قول بعضهم: سمي قرآنا لكونه جامعا لثمرات الكتب بل لجمعه ثمرة جميع العلوم (٤).

القول الثاني: أنه مصدر غير مهموز، وقد اختلفوا في أصل اشتقاقه:

فقيل: مشتق من (القرى)، تقول: قريت الماء في الحوض: أي جمعته (٥)

ومنه القرية لاجتماع الناس فيها(٦). قال السمين الحلبي: وهو غلط لأنهما مادتان متغايرتان . (٧)

وقيل: مأخوذ من (القرائن) لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضا

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجّاج: ١/ ١٧٠و ١/ ٣٠٥

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/ ١والتيسير في قواعد علم التفسير للكافيجي: والبرهان للزركشي: ١/ ٢٧٧والإتقان للسيوطي: ١/ ١٦٢.

(٣) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: ٤/ ٣٠والإتقان للسيوطي: ١/ ١٦٢.

(٤) المفردات للراغب: ٤٠٢، والبرهان للزركشي: ١/ ٢٧٧.

(٥) تهذيب اللغة (قرأ): ٩/ ٢٧١ومعاني القرآن للزجّاج: ١/ ٣٠٥، وجمال القراء للسخاوي: ١/ ٢٣.

(٦) معجم مقاييس اللغة (قرى): ٥/ ٧٨.

(٧) انظر الدر المصون للسمين الحلبي: ٢/ ٢٨١.

ويشابه بعضها بعضا وهي قرائن، [١] واعترض الزجاج فقال: هذا سهو، والصحيح أن ترك الهمزة فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها. [٢]

الفريق الثاني: الذين قالوا بعدم اشتقاقه، وقالوا: إنه غير مهموز، بل هو اسم علم غير منقول، وضع أول ما وضع اسما لكتاب الله، وروي عن الإمام الشافعي، كما روي عنه أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين، كان يقول: القرآن اسم وليس بمهموز، ولم يؤخذ من: قرأت، ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل. قال:

ويهمز: قرأت ولا يهمز القرآن. [٣]، وهو اختيار السيوطي في الإتقان. [٤]

ويعترض على هذا الرأي بأن العلم المرتجل نادر جدا، وأن الغالب في الأعلام أنها منقولة، بل ذهب سيبويه إلى أن الأعلام كلها منقولة [٥]، كما يعترض عليه بأن معظم القراء السبعة قرئوا لفظ (القرآن) بالهمز.[٦]

والذي يترجح لديّ والله أعلم بعد النظر في أقوال أهل العلم أن نقول:

القرآن مصدر مهموز مشتق من (قرأ) بمعنى (تلا). وهو رأي يسلم من الاعتراضات الموجهة إلى غيره، فالهمزة أصلية، وفيه معنى الجمع، ولم يغفل معنى التلاوة، والأهم من هذا أنه يستقيم تماما مع قوله

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ١/ ٢٧٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٢٧٨قال: وقد أشار إليه أبو علي الفارسي في (الحلبيات) والإتقان للسيوطي: ١/ ١٦٢.

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (قرأ) : ٩/ ٢٧١، والبرهان في علوم القرآن للزركشي: ١/ ٢٧٧وغاية النهاية لابن الجزري: ١/ ١٦٦.

(٤) الاتقان للسيوطي: ١/ ١٦٣

(٥) الكتاب لسيبويه

(٦) المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة: ١٨.

تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} [القيامة: ١٧] والمعنى: إن علينا جمعه وتلاوته، فإذا قرأناه فاتبع تلاوته والله أعلم .

ثانيا: (القرآن) في الاصطلاح، أو في تعريف أهل العلم:

القرآن كلام الله المنزّل على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم. وهو غير مخلوق، تكلم الله به ابتداء، وكلامه تعالى قائم بذاته، ولم يزل عز وجلّ متكلما إذا شاء، والقرآن كلامه تعالى بحرف وصوت، تكلم به سبحانه بصوت نفسه وحروف نفسه، وذلك غير مخلوق .

والقرآن هو اللفظ والمعنى معا، سمعه جبريل من الله عز وجلّ، وبلّغه إلى محمد صلى الله عليه وسلم وسمعه [١] .

والتعريف الحقيقي للقرآن هو استحضاره معهودا في الذهن أو مشاهدا بالحس كأن يشير إليه مكتوبا بالمصحف، أو مقروءا باللسان فتقول : هو ما بين الدّفتين. أو تقول: هو ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ .

وقد حاول العلماء وضع تعريف للقرآن ليميزوه عن الكتب السماوية السابقة والأحاديث القدسية، وليس بهدف رفع الجهالة عنه إذ الجهالة مرفوعة، ولهذا عرفوه بذكر بعض خصائصه، وتفاوتت اهتماماتهم بذكر هذه الخصائص، وتناوبت بين الإطناب والإيجاز، فمن أطنب كانت حجته أن مقام التعريف مقام إيضاح وبيان، ومن اختصر فأوجز فبحجة استحالة حصر خصائص القرآن، فهو كتاب لا تنقضي عجائبه.

وفريق ثالث اقتصد فتوسط وقال: القرآن هو الكلام المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف، المنقول

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ١٧٩ط المكتب الإسلامي وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/ ٤٠٣٦ ، والعقيدة السلفية في كلام رب البرية لعبد الله الجديع: ٦٣.

بالتواتر، المتعبد بتلاوته.[١]

ومن تعاريف الموجزين: هو اسم لهذا المنزّل العربي إذا عرّف باللام [٢]. أو هو: اللفظ المنزّل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس [٣].

ورأى آخرون أن القرآن ليس بحاجة إلى تعريف منطقي، فلا معنى لإضاعة الوقت حول طول التعريف أو قصره، ومدى إحاطته بصفات كتاب الله العزيز [٤]

ولا أرى مانعا من ذكر تعريف يضم أهم خصائص كتاب الله لتمييزه لا لرفع الجهالة عنه، إذ الجهالة مرفوعة، وقد عرّف تعالى القرآن في كتابه الكريم فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٤]، وبحث العلماء في الصفات الخاصة لكتاب الله فوجدوها: في الإنزال على النبي صلى الله عليه وسلم، والإعجاز، والنقل بالتواتر، والكتابة في المصاحف، والتعبد بالتلاوة. [٥] فإذا أضفنا إليها صفة خامسة فقيدنا الإنزال على النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام، نكون قد وضعنا قيودا ضابطة بإذن الله، وعليه نقول في تعريف القرآن الكريم بأنه: كلام الله المعجز، المتعبّد بتلاوته، المنزّل على النبي

محمد صلى الله عليه وسلم بوساطة جبريل عليه السلام، والمنقول إلينا بالتواتر والموجود بين دفتي المصحف.

---

(١) هذا التعريف منسوب للأصوليين والفقهاء وعلماء العربية، انظر: الكليات لأبي البقاء : ٤/ ٣٤ وروضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة: ١/ ١٨٠ومناهل العرفان للزرقاني: ١/ ١٢ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح: ٢١.

(٢) الكليات لأبي البقاء: ٤/ ٣٤.

(٣) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي: ١/ ٨٤ومناهل العرفان للزرقاني: ١/ ١٢.

(٤) في علوم القرآن دراسات ومحاضرات للكفافي والشريف: ٢٢.

(٥) المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة: ٢٠.

الفصل الأول

الفرق بين الاحتراس وغيره من المصطلحات

وفيه عدة مباحث :

المبحث الأول : الفرق بين الاحتراس والتكميل

المبحث الثاني : الفرق بين التكميل والتتميم

المبحث الثالث : الفرق بين الاحتراس والانفصال

المبحث الأول

الفرق بين الاحتراس والتكميل

لقد أشرت فيما سبق إلى أن أكثر العلماء جعل التكميل والاحتراس شيئا واحدا ولكن في مقابل هذا الدمج بين التكميل والاحتراس ، فإننا نجد أن المحققين من المتأخرين وأصحاب البديعيات يرون أن كلا منهما نوع منفرد عن الآخر، فالاحتراس عندهم هو كما رأيناه سابقا عند أكثر علماء المعاني أما التكميل فهو عندهم صنف آخر حيث يقولون في تعريفه :هو عبارة عن أن يأتي المتكلم بمعنى تام في فن من الفنون، فيرى الاقتصار عليه ناقصا فيكمله بمعنى آخر في غير ذلك الفصل الذي أتى به أولا . (١)

وهذا يعني أن المتكلم أو الشاعر حينما يأتي في كلامه بمعنى تام في غرض من الأغراض كالوصف أو المدح أو الذم أو غيرها ثم يرى أن اقتصاره على هذا المعنى فقط غير كامل فيقوم بالإتيان بمعنى آخر غير ذلك المعنى الذي ذكره في صدر كلامه .

ومن أمثلة ذلك قول كعب بن سعد الغنوي

(حليم إذا ما الحلم زين أهله ... مع الحلم في عين العدو مهيب)

فقد اشتمل السطر الأول على المدح بالحلم ولكن الشاعر رأى أن المدح بهذه الصفة لا يكفي وذلك لأن العدو لو علم من هذا الممدوح أن الصفة الغالبة عليه هي الحلم لما هابه ، فأراد الشاعر أن يكمل هذا المعنى بالهيبة التي ترهب العدو فأضاف قوله (مع الحلم في عين العدو مهيب) تكميلا للمعنى الأول ، ويحتوي هذا البيت على الاحتراس كذلك

(١) انوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم ٣٩٦

في قوله (إذا ما الحلم زين أهله) يقول الخطيب القزويني " فإنه لو اقتصر على وصفه بالحلم ، لأوهم أن حلمه عن عجز فلم يكن صفة مدح فقال إذا ما الحلم زين أهله فأزال هذا الوهم "[١]

يقول ابن أبي الإصبع المصري :

ولقد أحسن هذا الشاعر في احتراسه في صدر البيت وعجزه معا باحتراسين حسنين . أما الذي في الصدر فقوله :

(حليم إذا ما الحلم زين أهله) واما الذي في العجز فقوله (مع الحلم في عين العدو مهيب) لأن المهابة قد تكون مع الجهل . [٢]

وقول الفرزدق :

قبح الإله بني كليب إنهم لا يغدرون ولا يفون لجار [٣]

وبيان ذلك :

أن الفرزدق هجا هؤلاء القوم بعدم الغدر ، وكانه استقل هذا الوصف فقط فيهم ولم يجده كافيا ، فأضاف إليه قوله : (ولا يفون لجار) مكملا للمعنى السابق .

ومنها قول البحتري :

هل العيش إلا أن تساعدنا النوى بوصل سعاد أو يساعدنا الدهر

على انها ما عندها لمواصل وصال ولا عنها لمصطبر صبر

فلما وصف البحتري سعاد بأنها لا تصل من أراد وصلها ، رأى أن ذلك المعنى لايكفي ، لأنه يوحي بأن هذه الفتاة قطاعة لحبل من يريد وصالها ، فزاد على ذلك قوله (عنها لمصطبر صبر) وجعلها لا تطيق

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ٢١١/٣

(٢) تحرير التحبير لابن أبي الأصبع صـ ٣٥٨

(٣) لم أجد هذا البيت في ديوان الفرزدق .

صبرا على لقاء من لا يصبر على بعادها ولا شك أن هذا تكميل حسن .

فالبعض يحاول ان يجعل الاحتراس زيادة في اللفظ والبعض الآخر يريد ان يجعله زيادة في المعنى ، ولا أرى فرقا بين تسميته تكميلا أو احتراسا فكلاهما شيء واحد . (١)

(١) انوار الربيع في أنواع البديع ٣٩٦

المبحث الثاني

الفرق بين التكميل والتتميم

لا فرق في اللغة بين التكميل والتتميم فالكمال في اللغة التمـــام ، يقال : أكملت الشيء أي أجملته وأتممته ، وأكمله هو واستكمله وكمله : اتمه وجمله ، والتكميل والاكمال التمام واستكمله : استتمه . (١)

أما في اصطلاح علماء البلاغة فالتكميل هو : (هو عبارة عن أن يأتي المتكلم بمعنى تام في فن من الفنون، فيرى الاقتصار عليه ناقصـــا فيكمله بمعنى آخر في غير ذلك الفصل الذي أتى به أولا) (٢)

وأما التتميم : فهو يؤتى به في كلام لا يوهم خـــلاف المقصـــود بفضلة تفيد نكتة ، كالمبالغة في قوله تعالى { ويطعمون الطعـــام علـــى حبه } أي مع حبه والضمير للطعام أي مع اشـــتهائه والحاجـــة إليـــه، ونحوه: وآتى المال على حبه وكذا { لن تنالوا البر حتى تنفقـــوا ممـــا تحبون }(٣)

وبالنظر في تعريف التتميم والتكميل نجد الفرق بينهما ان النكتـــة في التتميم غير دفع توهم خلاف المقصود لا بأنه لا يكون في كلام يوهم خلاف المقصود إذ لا مانع من اجتماع التتميم والتكميل .

ولقد فرق العلوي بينهما حيث قال " والتفرقة بين الإكمال والتتميم ظاهرة مع كونهما مشتركين فى أنهما إنما زيدا من أجل رفع الوهم عن تخيل ما يحط من المدح ويسقطه ، وحاصلها من جهة اللفظ ومن جهـــة المعنى، أما من جهة اللفظ فهو أن التتميم إنما يقال فى شيء نقص ثـــم

(١) لسان العرب ٥٨٩/١١

(٢) انوار الربيع صـــــ ٣٦٩

(٣) السابق ذاته

تمم بغيره، بخلاف الإكمال فإنه تام لم ينقص منه شيء، خلا أنه أكمل بغيره، فصار الأول بالزيادة تاما، وصار الثاني بالزيادة كاملا، وأما من جهة المعنى فهو أن التتميم إنما يذكر من أجل رفع احتمال متوهم، فلهذا افترقا، فالإتمام يرفع الخطأ مما ليس ذما، والإكمال يرفع الذم المتوهم إذا لم يذكر، فهذا تقرير ما يمكن من التفرقة بينهما . "(١)

وذكر العلوي مراد البلاغيين من التتميم حيث قال :" وهو – التتميم –فى مصطلح علماء البيان عبارة عن تقييد الكلام بفضلة لقصد المبالغة، أو للصيانة عن احتمال الخطأ، أو لتقويم الوزن، فهذا تقرير معناه فى مراد علماء البلاغة، ثم يرد على أوجه ثلاثة، إما للمبالغة، وإما للصيانة، وإما لإقامة الزنة .

وهو بذلك يرد على ثلاثة أوجه :

أولها: أن يكون واردا على جهة المبالغة بأن تكون الفائدة فى تلك الفضلة إنما هي المبالغة لا غير .

وثانيها : أن تكون واردة على جهة الصيانة عن احتمال الخطأ فترد رافعة له .

وثالثها : أن يكون واردا على جهة الاستقامة للوزن ولا يحتاج إليه فى المبالغة ولا للاحتراز." (٢)

ويلاحظ ان العلوي قد ساق بعض شواهد التكميل للتتميم وقد اوضح هذا صاحب تحرير التحبير إذ يقول : " وما وهم فيه المؤلفون في الموضع أنهم خلطوا التكميل بالتتميم، إذ ساقوا في باب التتميم شواهد التكميل، لأن كلا منهم ذكر قول عوف بن محلم السعدي :

---

(١) الطراز للعلوي ٦١/٣

(٢) الطراز للعلوي ٨٥/٣

إن الثمانين وبلغتها قد ... أحوجت سمعي إلى ترجمان

من شواهد التتميم، ومعنى البيت تام بدون لفظة وبلغتها وإذا لم يكن المعنى ناقصاً فكيف يسمى هذا تتميماً!!، وإنما هو تكميل، وما غلطهم إلا من كونهم لم يفرقوا بين تتميم الألفاظ وتتميم المعاني، فلو سموا مثل هذا تتميماً للوزن لكان قريباً، وإنما ساقوه على أنه من تتميم المعاني البديعة ولذلك أتوا بقول المتنبي :

ويحتقر الدنيا احتقار مجرب ... يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا

في باب التتميم، وهو مثل الأول ، وإن زاد على الأول أدنى زيادة، لما في لفظة حاشاك بعد ذكر الفناء من حسن الأدب مع الممدوح، وربما سومح بأن يجعل هذا البيت في شواهد التتميم لهذه الشبهة.

وأما الأول فمحض التكميل، ولا مدخل له في التتميم اللهم إلا أن يكون مرادهم بالتتميم تتميم الوزن، لا تتميم المعنى، فيجوز بهذا الاعتبار أن يسمى كل ماورد من الحشو الحسن سوءا كان متمماً للمعنى أو مكملاً تتميماً، لأنه به تم الوزن، ويكون من قسم تتميم الألفاظ، وما قدمناه من تتميم المعاني." (١)

وهذا ما أراده العلوي حين ساق شواهد التكميل للتتميم فهو يقصد تتميم الألفاظ للوزن .

ويوضح ابن أبي الإصبع الفرق بين التتميم والتكميل فيقول " والفرق بين التتميم والتكميل أن التتميم يرد على المعنى الناقص فيتممه والتكميل يرد على المعنى التام فيكمله، إذ كان الكمال أمراً زائداً على التمام.

(١) تحرير التحبير صـ ٣٦٠

والتتميم لا يكون إلا في المعاني دون الفنون، أعني بالمعاني معاني النفس، لا معاني البديع، التي هي أنواعه، وأعني بالفنون أغراض المتكلم ومقاصده، والتكميل يكون فيهما معاً، هذا إذا لم يرد بالتتميم تتميم الوزن "[١]

ويقول في أول باب الاحتراس : "

وهو أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه دخل، فيفطن له، فيأتي بما يخلصه من ذلك، والفرق بين الاحتراس، والتكميل، والتتميم : أن المعنى قبل التكميل صحيح تام، ثم يأتي التكميل بزيادة يكمل بها حسنه إما بفن زائد أو بمعنى، والتتميم يأتي ليتمم نقص المعنى ونقص الوزن معاً ، والاحتراس لاحتمال دخل على المعنى، وإن كان تاماً كاملاً، ووزن الكلام صحيحاً، وقد جعل ابن رشيق الاحتراس نوعاً من التتميم، وسوى بينهما، وقد ظهر الفرق بينهما، فجعلهما في باب واحد غير سائغ.

والفرق بينه وبين المواربة بالراء المهملة أيضاً، أن الاحتراس يؤتى به وقت العمل عند ما يتفطن المتكلم لموضع الدخل، والمواربة يؤتى بها وقت العمل، وبعد صيرورة الكلام ، والمواربة بالراء المهملة، تكون بالتصحيف والتحريف واهتدام الكلمة، والزيادة والنقص، والاحتراس بزيادة الجمل المفيدة المتضمنة معنى الانفصال عما يحتمله الكلام من الدخل، والمواربة تكون في نفس الكلام وتكون منفصلة عنه. والاحتراس لا يكون إلا في نفس الكلام "[٢]

(١) السابق ذاته

(٢) السابق ذاته

المبحث الثالث

الفرق بين الاحتراس والانفصال

يذكر صاحب تحرير التحبير الفرق بينهما فيقول :

" الاحتراس : هو ما فطن له الشاعر أو الناثر وقت العمل فاحترس منه. والانفصال ما لم يفطن له حتى يدخل عليه، فيأتي بجملة من الكلام، أو بيت من الشعر ينفصل به عنه ذلك الدخل. "(١)

ويعرف الانفصال ويمثل له في موضع آخر من كتابه فيقول " وهو أن يقول المتكلم كلاماً يتوجه عليه فيه دخل إذا اقتصر عليه، فيأتي بعده بما ينفصل به عن ذلك إما ظاهراً أو باطناً يظهره التأويل كقوله تعالى: " وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون " فإن على ظاهر هذه الآية حصل من جهة أن الطائر يطير بجناحيه ، فيكون الإخبار بذلك عرياً عن الفائدة، والانفصال عن ذلك هو أنه سبحانه لما قال: " وما من دابة في الأرض " أوجبت البلاغة أن يردف ذلك بقوله " ولا طائر " في السماء أو في الجو " يطير بجناحيه " فأراد الإيجاز، فوجب أن يحذف إحدى الجملتين إما في السماء أو يطير وما فيها من الضمير، ولا سبيل إلى حذف الفعل، لأنه الذي يتعلق به الجار والمجرور الذي يمر بجناحيه وذكره مطلوب في الآية، لأن ذكر الجناح يفصل صاحبه من الهمج الذي يظهر وهو يخال أنه يطير كالنمل والجعلان وغير ذلك، لأن هذا الصنف قد ذكر في صنف ما دب ودرج في الأرض، والآية قصد بها صحة التقسيم، لأنه سبحانه لما استوعب

(١) تحرير التحبير ٣٦٩

كل ما يدب على الأرض في صدرها أراد الإتيان بما يعم الذي يطير في الجو، ولا يطير في الجو إلا طائر، ولا يسمى طائراً إلا إذا طار بجناحين، ولا تسمى آلة الطيران جناحاً إلا إذا كانت ذات قصب وريش وأباهر وخوافي وقوادم، فقوله سبحانه: " ولا طائر " بعد ذكر الدواب موضح لما أراد من صحة التقسيم ، ولفظة طائر رشحت لفظة يطير لمجيئها بعدها، ولفظة يطير رشحت الإتيان بلفظة الجناحين، فحصل من مجموع ذلك الانفصال عن الدخل المتوجه على ظاهر الآية، والله أعلم. "[١]

وأرى أنه من إتمام الفائدة قبل أن نشرع في ذكر الأمثلة الخاصة بموضوع البحث أن نذكر بعضا من شروط الاحتراس وهي :

١- أن الاحتراس لا يأتي في بداية الكلام ، ولا يكون إلا في وسط الكلام أو نهايته .

٢- تتنوع صور الاحتراس ، فتارة يكون مفردا بالحرف أو بالفعل أو الاسم ، وتارة غير مفرد (جملة) فعلية كانت أو اسمية ، لها محل من الإعراب ، أو ليس لها محل من الإعراب .

٣- يأتي لنكتة بلاغية ، هي دفع التوهم الموجب للعيب في الكلام .

(١) تحرير التحبير ٦٠٩،٦١٠

الفصل الثاني
أغراض الاحتراس في القرآن الكريم وأمثلته

تمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فإن البيان القرآني العظيم ميدان واسع، ومجال فسيح ، وحقل خصيب، نبتت فيه كل أفانين البلاغة العالية، والفصاحة الواضحة، وأساليب المعاني المطبوعة وصور البيان الظاهرة ، ومحاسن البديع الباهرة ، حتى وصل بالبلاغة العربية إلى مرتبة عالية، ومنزلة سامية لا يدانيها أحد، ولا يستطيع مطابقتها أديب ، ولا يقف على مدى كنهها بليغ ، فهو أبلغ كلام سمعته العرب ، لما يتصف به من سهولة في العرض ، وعذوبة في الأسلوب ، ووضوح في المعاني ، مما يجعل المخاطب به لا يكابد عناء ولا يشعر بملل في متابعة آياته وانسياب معانيه في قلبه وعقله .

والأسلوب القرآني المعجز بهذه الصفات الكثيرة والمتنوعة كان مهيئا كل التهيؤ لأن يقع في قلب المخاطب، ويتأكد لديه، ويستقر بداخله، مما كان سبباً رئيساً لدفع العلماء إلى دراسة لغته ، وفهم أسرار كلماته وجمله وأسلوبه ، رغبة في الوصول إلى بيان مراد الله من الخلق .[1]

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي ــ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢٧ ت / محمد خلف الله أحمد ، و محمد زغلول سلام .

والقارئ في القرآن الكريم يتجلى له أن أسلوب الاحتـــراس مـــن الأساليب البلاغية التي تبرز للقارئ مدى عناية القرآن الكريم باختيـــار الألفاظ والتراكيب التي تألف منها القرآن الكريم ، مما يدل أن القـــرآن الكريم كلام الله تعالى وليس من كلام البشر بل تنزيل من حكيم حميد ، ولقد جاء الاحتراس في القرآن لأغراض متعـــددة ، منهـــا التكميلـــي والتهكمي والضدي والترقي ، إلا أن النوع الأول منه وأعني الاحتراس التكميلي ، يعد هو الغرض الذي استغرق امثلة كثيرة في القرآن الكريم ، وأما باقي الأغراض الأخرى فأمثلتها قليلة جدا ، كما سيتضح ذلك في ثنايا البحث ، وفي الصفحات التالية سنعرض لأمثلـــة الاحتـــراس فـــي القرآن الكريم بأنواعه الأربعة ، وسنراعي في ذلـــك ترتيـــب الأمثلـــة بحسب ورودها في المصحف الشريف .

المبحث الأول

الاحتراس التكميلي

قال تعالى :

١- (وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥) [البقرة: ٢٥]

من عادة القرآن الكريم أنه إذا تعرض للكلام على من كفر وعصى أردف ذلك بالكلام على من آمن واتقى ليظهر الفرق جليا بينهما فيكون ذلك أدعى للامتثال. " فبعد أن تحدث عن عذاب النار أردفه ببشارة المؤمنين فقال " {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ (البشارة) : الإخبار بما يظهر سرور المخبر به. ومنه البشرة: لظاهر الجلد. وتباشير الصبح ما ظهر من أوائل ضوئه. وأمّا فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء- الزائد في غيظ المستهزأ به، وتألّمه، واغتمامه- ففيه استعارة أحد الضدّين للآخر تهكّما وسخرية. والصَّالِحاتِ ما استقام من الأعمال أي صلح لترتب الثواب عليه. " (١)

(أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ) قال الفرّاء: الجنة البستان فيه النخيل، والفردوس البستان فيه الكرم ، والمراد بها هنا دار الخلود في الحياة الآخرة أعدها الله للمتقين كما أعدّ النار للكافرين، ونحن نؤمن

(١) تفسير القاسمي ٢٥٧/١ .

بهما ولا نبحث عن حقيقتهما. والأنهار واحدها نهر (بفتح الهاء وسكونها) وهو المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كنيل مصر، وجرى الأنهار من تحتها هو كما نشاهد في الأشجار التي على شواطئ الأنهار الجارية. (١)

﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة ﴾ "وإن هذه الثمرات متشابهة في اللون، وإن كان الطعم في الذوق متغيرا، وهي دائمة متجددة، مستمرة لَا تُمل ولا تُسأم بل فيها المتعة المتجددة؛ ولذا قال تعالى: (كُلَّمَا رزِقُوا مِنْهَا من ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا من قَبْلُ) أي أن هذه الثمرات تجيء إليهم رزقا من الله تعالى من غير جهد يبذلونه، ولا عمل يعملونه؛ ولذلك قال تعالى: (رزِقُوا) وأكده سبحانه بقوله تعالى: (رِّزْقًا) أي أنه يجيء بأمر الله وإنعامه رزقا حسنا من غير أن يقوموا بمجهود فيها، فهي دار الجزاء والنعيم، وهم يقولون: هذا الذي رزقنا من قبل، وهذا يدل على التجدد المستمر ، ويدل على التشابه في الشكل، فمعنى النص: هذا الذي رُزقناه في الجنة مثل الذي رُزقناه من قبل في شكله، ولكنهم يجدون الطعم متغيرا، وسبحان خالق كل شيء؛ ولذا قال تعالى: (وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا) في شكله، وإن تغير طعمه." (٢)

﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ أي ولهم في الجنة زوجاتٌ من الحور العين مطهَّرات من الأقذار والأدناس الحسية والمعنوية قال ابن عباس: مطهَّرة من القذر والأذى وقال مجاهد: مطهَّرة من الحيض والنفاس،

---

(١) تفسير المراغي ٦٨/١

(٢) تفسير ابو زهرة ١٧٢/١

والغائط والبول والنخام، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً﴾ [الواقعة: ٣٥ – ٣٧] (١)

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ . . أي لا موت في الآخرة ولن يكون في الآخرة وجود للموت أبدا، وإنما فيها الخلود الدائم إما في الجنة وإما في النار. (٢)

"وهذه الجملة «وهم فيها خالدون» جيء بها على سبيل الاحتراس من وهم الانقطاع. " (٣)

ويجلي لنا هذا المعنى الإمام الطاهر بن عاشور فيقول " وقوله: وهم فيها خالدون احتراس من توهم الانقطاع بما تعودوا من انقطاع اللذات في الدنيا لأن جميع اللذات في الدنيا معرضة للزوال وذلك ينغصها عند المنعم عليه "(٤)

والمعني " أن ذلك النعيم دائم لَا ينغصه توقع زواله، بل النعمة كاملة بدوامه" (٥) ، " وهذا هو تمام السعادة ، فإنّهم– مع هذا النعيم– في مقام أمين من الموت والانقطاع، فلا آخر له ولا انقضاء. بل في نعيم سرمديّ أبديّ على الدوام . والله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم. إنه البر الرحيم." (٦)

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني ٣٦/١

(٢) تفسير الشعراوي ٢١٠/١

(٣) الوسيط للشيخ الطنطاوي ٨١/١

(٤) التحرير والتنوير ٣٥٢/١

(٥) زهرة التفاسير ١٧٢/١

(٦) تفسير القاسمي ٢٧٧/١

" وذلك ما تمتاز به الجنة عن الدنيا في أنها دار الخلود أي الدوام والبقاء والمكث الطويل، الذي لا بديل عنه، وهو تمام السعادة، وأمل المؤمنين." (١) وهذا ما ينبئ عنه الاحتراس الوارد في الآية الكريمة .

والغرض من هذا الاحتراس : دوام النعمة وعدم انقطاعها

٢- (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾) [البقرة: ٧٥]

" لما ذكر الله سبحانه وتعالى قبائح أسلاف اليهود وسوء معاملتهم مع نبيهم، أردفها قبائح أخلافهم المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنه قيل: إذا كان هذا فعلهم فيما بينهم، فكيف تطمعون أيها النبي والمؤمنون في أن يؤمنوا "(٢)

" فلقد حرص النّبي صلّى الله عليه وسلم وصحابته على انضمام أهل الكتاب (اليهود والنصارى) إلى دعوته والإيمان برسالته في مواجهة المشركين، لوجود جسور التقاء معهم من الإيمان بوجود الإله والتصديق بالأنبياء وبالبعث واليوم الآخر." (٣)

"فالخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين، والاستفهام يقصد به الإنكار عليهم، إذ طمعوا في استجابة اليهود لدعوة الحق، بعد أن علموا سوء أحوالهم، وفساد نفوسهم. والنهى عن الطمع في إيمانهم لا يقتضى عدم دعوتهم إلى الإيمان ، فالمؤمنون مأمورون بدعوتهم إليه، لإقامة الحجة عليهم في الدنيا عند إجراء أحكام الكفر عليهم، ولقطع عذرهم في الآخرة "(٤)

---

(١) التفسير المنير للزحيلي ١٠٧/١

(٢) رغائب الفرقان للنيسابوري ٣١٦/١

(٣) التفسير المنير ١٨٩/١

(٤) التفسير الوسيط للطنطاوي ١٧٩/١

" {وقد كان فريق} أي: طائفة {منهم} أي: أحبارهم {يسمعون كلام الله} أي: التوراة {ثم يحرّفونه} يغيرونه كنعت محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم، وقيل: هؤلاء من السبعين المختارين الذين سمعوا كلام الله حين كلم موسى عليه الصلاة والسلام بالطور ثم قالوا: سمعنا الله يقول في آخره إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا "(١)

" وقال ابن جرير: يعني بقوله يُحَرِّفُونَهُ يبدلون معناه وتأويله ويغيّرونه، وأصله من انحراف الشيء عن جهته وهو ميله عنها إلى غيرها.

فكذلك قوله يُحَرِّفُونَهُ أي يميلونه عن وجهه، ومعناه الذي هو معناه، إلى غيره." (٢)

قال صاحب تفسير المنار " وقوله – تعالى –: (من بعد ما عقلوه) نص في التعمد وسوء القصد، وإبطال لما عساه يعتذر لهم به من سوء الفهم. ثم قال: (وهم يعلمون) أي كانوا يفعلون فعلتهم الشنعاء في حال العلم بالصواب واستحضاره، لا أنهم كانوا على نسيان أو ذهول، وفي هذين القيدين من النعي والتشنيع عليهم ما لا مزيد عليه، وكيف وقد بطل بهما عذر الخطأ والنسيان وسجل عليهم تعمد الفسوق والعصيان! "(٣)

---

(١) السراج المنير للشربيني ٧٢/١

(٢) جامع البيان للطبري ٣٣٤/١

(٣) تفسير المنار ٢٥٩/١

وقوله تعالى ﴿ من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ احتراس عن احتمال كونهم معذورين بالجهل ، فقد فعلوا ذلك بعد أن عقلوا كلام الله، عز وجل، وعلموا أنه من عنده حقا، فهم أعلم الناس بصدق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وصحة رسالته.

قال بن الجوزي " وَهُمْ يَعْلَمُونَ قولان : أحدهما: وهم يعلمون أنهم حرّفوه. والثاني: وهم يعلمون عقاب تحريفه . " (١)

والغرض من الاحتراس في هذه الآية ، نفي الجهل عن أهل الكتاب .

٣- (وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾) [البقرة: ١٠٢]

" ما زال السياق الكريم في بيان ما عليه اليهود من الشر والفساد، ففي الآية السابقة يخبر تعالى: أن اليهود لما نبذوا التوراة لتقريرها بنبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتأكيدها لصحة دينه اتبعوا الأباطيل والترهات التي جمعها شياطين الإنس والجن في صورة رُقى وعزائم وكانوا يحدثون بها، ويدّعون أنها من عهد سليمان بن داود عليهما السلام، وأنها هي التي كان سليمان يحكم بها الإنس والجن، ولازم هذا

(١) زاد المسير لابن الجوزي ١/٨٠

أن سليمان لم يكن رسولاً ولا نبياً وإنما كان ساحراً كافراً، فلذا نفى الله تعالى عنه ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ وأثبته للشياطين فقال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ . "(١)

" يعلمون الناس السحر (يقصدون به اغواءهم وإضلالهم وما أنزل على الملكين عطف على السحر أي ويعلمونهم ما انزل على الملكين وقيل هو عطف على ما تتلو أي واتبعوا ما انزل هاروت وماروت

عطف بيان للملكين علمان لهما والذي انزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس من تعلمه منهم وعمل به كان كافرا ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمنا "(٢) " وما يعلِّم الملكان من أحد حتى ينصحاه ويحذِّراه من تعلم السحر، ويقولا له: لا تكفر بتعلم السِّحر وطاعة الشياطين. فيتعلم الناس من الملكين ما يُحْدِثون به الكراهية بين الزوجين حتى يتفرقا. ولا يستطيع السحرة أن يضروا به أحدًا إلا بإذن الله وقضائه. "(٣)

وفي جملة "وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ": احتراس جيء به لئلا يظن ظان أن الضر والنفع بيدهما، فإنما يضران بسحرهما من شاء الله، عز وجل، وقوع الضرر عليه بإذنه الكوني، فإذا شاء أنفذه وإذا شاء أبطله.

أي أن النفع والضر لا يكونان إلا بيد الله تعالى وحده لمن أراد إيقاع الضرر به وليس السحر هو المؤثر الحقيقي فعن عن ابن عباس قال:

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري ٩١/١

(٢) تفسير الكشاف ١٩٨/١

(٣) التفسير الميسر ١٦/١

كنت خلف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوما فقال: ((يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف) ([1])

والغرض من الاحتراس في هذه الآية هو إثبات أن الضر والنفع بإذن الله تعالى.

٤- (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾) [البقرة: ١٠٩]

" يخبر الله تعالى في هذه الآية عن حسد كثير من أهل الكتاب، وأنهم بلغت بهم الحال، أنهم ودوا ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ وسعوا في ذلك، وأعملوا المكايد، وكيدهم راجع عليهم [كما] قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم."([2])

" والحسد هو تمني زوال النعمة عمن تكره. . وقوله تعالى: {حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} . . أي هذه المسألة من ذواتهم فهؤلاء اليهود لم يؤمروا بذلك في كتابهم، بل إن كتابهم لينهاهم عن هذا الخلق الذميم ولكنهم

---

(١) سنن الترمذي ، باب /صفة القيامة والرقائق والورع ٦٦٧/٤ رقم (٢٥١٦) وقال الألباني حديث صحيح

(٢) تفسير السعدي صـــ ٦٢

لخبث نفوسهم وسوء طباعهم، رسخ الحسد في قلوبهم لدرجة يعسر معها صرفه عنهم، أو صرفهم عنه.

فهم يحسدون المسلمين على نعمة الإيمان. . ويتمنون زوال هذه النعمة. . التي جعلت من المسلمين إخوانا متحابين متكاتفين مترابطين. . بينما هم شيع وأحزاب. "(١)

وقوله: "من بعد ما تبين لهم الحق": احتراس بانتفاء عذر الجهل في حقهم فهم أهل الكتاب الأول الذي بشر بالنبي الخاتم صلى الله عليه وعلى آله وسلم اسما ووصفا، فانتظروه حتى إذا ما جاء من غيرهم أنكروه وكتموا وصفه . والمعنى أن إنكارهم لم يكن عن جهل بنبوته ، وإنما كان عن كمال علم بصحة بعثته عليه السلام .

وإلى هذا المعنى أشار فضيلة الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي فقال : "وقوله تعالى: مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان وقعت، بعد أن ظهر لهم صدق النبي صلّى الله عليه وسلّم وبعد أن تبين لهم أن الصفات التي وردت في التوراة بشأن المبشر به، لا تنطبق إلا عليه، وإذا فكفرهم به لم يكن عن جهل وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل، وذلك هو شأن أحبارهم الذين كانوا على علم بالتوراة، وبتبشيرها بالنبي صلّى الله عليه وسلّم." (٢)

---

(١) تفسير الشعراوي ٥٢٤/١

(٢) التفسير الوسيط للطنطاوي ١/ ٢٤٥

والغرض من الاحتراس : إثبات عناد وإصرار أهل الكتاب على الباطل بعد نفي الجهل عنهم وعلمهم به .

" وإنما أمر المسلمون بالعفو والصفح عنهم في هذا الموضع خاصة لأن ما حكي عن أهل الكتاب هنا مما يثير غضب المسلمين لشدة كراهيتهم للكفر قال تعالى: وكره إليكم الكفر [الحجرات: ٧] فلا جرم أن كان من يود لهم ذلك يعدونه أكبر أعدائهم فلما كان هذا الخبر مثيرا للغضب خيف أن يفتكوا باليهود وذلك ما لا يريده الله منهم لأن الله أراد منهم أن يكونوا مستودع عفو وحلم حتى يكونوا قدوة في الفضائل. "(١)

"ولقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بإثبات قدرة الله تعالى فقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، فإذا أمر الله كان قادرا على نزع الأحقاد من القلوب، والقصاص من الظالمين، وكشف ضلال المنافقين؛ لأنه قادر على كل شيء وقد أكد قدرته سبحانه بالجملة الاسمية وإن المؤكدة، وعموم موضوع قدرته واختصاصه سبحانه وتعالى بالقدرة على كل شيء بتقديم الجار والمجرور على قدير. تعالت قدرته وعظمته وحكمته." (٢)

٥- (وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾) [البقرة: ١٢٠]

" كان النّبي صلّى الله عليه وسلّم يرجو أن يؤمن أهل الكتاب برسالته، لموافقتهم له في أصل الدين، من توحيد الله ، وتقويم الاعوجاجات

---

(١) التحرير والتنوير ١/٦٧٠

(٢) زهرة التفاسير ١/ ٣٦٣

والتقاليد الفاسدة، فعز عليه إعراضهم عن إجابة دعوته ، ولسان حالهم يقول: يا محمد مهما تأتنا من بينة، ومهما فعلت لإرضائنا ، فلن نرضى حتى تتبع ملتنا. "(١)

"﴿ولن ترضى عنك اليهود﴾ يعني إلا باليهودية ، ﴿ولا النصارى﴾ يعني إلا بالنصرانية وهذا شيء لا يتصور إذ لا يجتمع في رجل واحد شيئان في وقت واحد وهو قوله : ﴿حتى تتبع ملتهم﴾ يعني دينهم وطريقتهم. أهـ" (٢)

وقال الطبرى : "وليست اليهود ، يا محمد ، ولا النصارى براضية عنك أبدا ، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق ، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم. ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم ، لأن اليهودية ضد النصرانية ، والنصرانية ضد اليهودية ، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد في حال واحدة ، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك ، إلا أن تكون يهوديا نصرانيا ، وذلك مما لا يكون منك أبدا ، لأنك شخص واحد ، ولن يجتمع فيك دينان متضادان في حال واحدة. وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك في وقت واحد سبيل ، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقين سبيل. وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل ، فالزم هدى الله الذي لجمع الخلق إلى الألفة عليه سبيل. أهـ" (٣)

---

(١) التفسير المنير ٢٩٦/١

(٢) تفسير الخازن ١ /٧٧

(٣) تفسير الطبرى ٢ /٥٦٢

"إضافة الهدى إلى الله تشريف ، والقصر إضافي. وفيه تعريض بأن ما هم عليه يومئذ شيء حرفوه ووضعوه ، فيكون القصر إما حقيقياً ادعائياً بأن يراد هو الهدى الكامل في الهداية فهدى غيره من الكتب السماوية بالنسبة إلى هدى القرآن كلاَ هدى لأن هدى القرآن أعم وأكمل فلا ينافي إثبات الهداية لكتابهم كما في قوله تعالى : {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور} [المائدة : ٤٤] وإما قصراً إضافياً أي هو الهدى دون ما أنتم عليه من ملة مبدلة مشوبة بضلالات وبذلك أيضاً لا ينتفي الهدى عن كثير من التعاليم والنصايح الصالحة الصادرة عن الحكماء وأهل العقول الراجحة والتجربة لكنه هدى ناقص. أهـ (١)"

وقال البيضاوى : " ﴿وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءهُم﴾ آراءهم الزائفة. والهوى : رأي يتبع الشهوة. أهـ" (٢)

"﴿بَعْدَ الذي جَاءكَ مِنَ العلم﴾ أي من الدين المعلوم صحته بالدلائل القاطعة. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ أي معين يعصمك ويذب عنك ، بل الله يعصمك من الناس إذا أقمت على الطاعة والاعتصام بحبله. أهـ (٣)"

والفائدة من عطف النصير على الولي " هو الاحتراس ؛ لأن نفي الولي لا يقتضي نفي كل نصير إذ لا يكون لأحد ولي لكونه دخيلا في قبيلة ويكون أنصاره من جيرته .

---

(١) التحرير والتنوير ١ / ٣٩٩

(٢) تفسير البيضاوى ١ / ٢٩٣

(٣) تفسير الفخر الرازي ١٢٩/٤

وكان القصد من نفي الولاية التعريض بهم في اعتقادهم أنهم أبنـــاء الله وأحباؤه ، فنفي ذلك عنهم حيث لم يتبعوا دعوة الإسلام ، ثم نفى الأعم منه وهذه نكتة عدم الاقتصار على نفي الأعم." (١)

إذ قد يتوهم البعض أن الولي بمعنى النصير أي أنهما بمعنى واحد وهذا غير صحيح فقد فرق بينهما الإمام أبو الهلال العســكري رحمــه الله تعالى فقال" الْفرق بَين النصير والولي : أَن الْوِلَايَة قد تكون بــإخلاص الْمَوَدَّة والنصرة تكون بالمعونة والتقوية وَقد لَا تمكــن النُّصْــرَة مَــعَ حُصُول الْوِلَايَة فَالْفرق بَينهمَا بَين" (٢)

والغرض من الاحتراس في هذه الآية هو نفي النصرة والولاية عن أهل الكتاب .

٦- (وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥) [البقرة: ١٣٥]

بعد أن بين الله تعالى أن دين الله واحد على لسان النبيين جميعــا، وأن على العرب وأهل الكتاب اتباع الإسلام الذي هو امتداد لدعوة الأنبيــاء السابقين ، ندد المولى سبحانه بتمسك أهل الكتاب بفوارق الدين الجزئية، فقال اليهود: كونوا مع اليهود في دينهم تهتدوا إلى الطريق السوي، وقال النصارى: كونوا مع النصارى تصلوا إلى الحق ، وأتبــاع كــل ديــن يدعون أن دينهم خير الأديان . (٣)

"فقال الله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حنيفا ﴾ [البقرة: ١٣٥] أي: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفا.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٧٧/١

(٢) الفروق للغوية للعسكري ١٨٩/١

(٣) التفسير المنير ٣٢٣٢/١

قال ابن دريد: الحنيف: العادل عن دين إلى دين، وسمي الإسلام: الحنيفية ، لأنها مالت عن اليهودية والنصرانية.

وقال الأصمعي: ومن عدل عن دين اليهود والنصارى فهو حنيف عند العرب.

وقال الأخفش: الحنيف: المسلم، وكان فِي الجاهلية يقال لمن اختتن وحج البيت: حنيف.

لأن العرب لم تتمسك فِي الجاهلية بشيء من دين إبراهيم غير الختان وحج البيت، فلما جاء الإسلام عادت الحنيفية ، وقال ابن عباس: الحنيف : المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام." (١)

والخلاصة ان المراد من قوله تعالى { حنيفا} هو : من عدل عن الأديان الأخرى كاليهودية والنصرانية إلى الإسلام واعتنقه وأخلص له ، ولعل هذا ما نفهمه من أقوال المفسرين السالفة الذكر .

﴿ وما كان من المشركين﴾ " جملة هي حالة ثانية من إبراهيم وهو احتراس لئلا يغتر المشركون بقوله : [بل ملة إبراهيم] أي لا نكون هودا ولا نصارى فيتوهم المشركون أنه لم يبق من الأديان إلا ما هم عليه لأنهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم وإلا فليس ذلك من المدح له بعد ما تقدم من فضائله وهذا على حد قوله تعالى : وما صاحبكم بمجنون "(٢)

ومجيء الاحتراس في ختام الآية الكريمة تضمن جملة من الفوائد نذكر منها :

" ١- نفي الإشراك عن إبراهيم في جميع أزمنة الماضي .

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي ٢١٨/١

(٢) التحرير والتنوير ٧١٧/١

٢- تجدد نفي الإشراك تجددا مستمرا .

٣- وبراءته من الإشراك براءة تامة. "([1])

" ونفى عنه الإشراك فانتفت عبادة الأوثان واليهودية لقولهم عزير ابن الله، والنصرانية لقولهم المسيح ابن الله." ([2])

ولقد كان المشركون يقولون أنهم على ملة إبراهيم وهم قائمون على عبادة الأصنام فبين الله تعالى أن إبراهيم لم يكن مشركا مثلهم ، وقد امتاز القرآن من بين الكتب المنزلة بسد المنافذ التي يتسلل منها الإشراك بصراحة أقواله وفصاحة بيانه، وأنه لم يترك في ذلك كلاما متشابها كما قد يوجد في بعض الكتب الأخرى وكل ذلك لا يبقى شكا في أن الإسلام هو إسلام إبراهيم وليس ما زعموه .

والغرض من الاحتراس في هذه الآية : نفي الشرك عن إبراهيم عليه السلام.

٧- (وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾) [البقرة: ٢٠٦]

في هذه الآية يقص الله تعالى علينا بعضا من اوصاف المنافقين وهي أنهم : إذا" قيل لأحدهم : «اتَّقِ اللَّهَ» .. تذكيراً له بخشية الله والحياء منه والتحرج من غضبه.. أنكر أن يقال له هذا القول واستكبر أن يوجه إلى التقوى وتعاظم أن يؤخذ عليه خطأ وأن يوجه إلى صواب. وأخذته العزة لا بالحق ولا بالعدل ولا بالخير ولكن «بِالْإِثْمِ» .. "([3])

---

(١) السابق ذاته

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٢١٥/١

(٣) في ظلال القرآن ٢٠٥/١

وقرنت كلمة العزة هنا بكلمة الإثم، وهذا يسمى في عرف البلاغيين الاحتراس، فليست العزة على إطلاقها مذمومة، فهناك عزة محمودة، قال الله جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، فالعزة المحمودة هي العزة التي ينالها المرء بالدين وباعتصامه بربه، والعزة المذمومة التي تكون مصحوبة بالإثم، فلهذا جعلها الله مصحوبة بالإثم هنا حتى يكون هناك احتراس من أنه ليس كل عزة مذمومة، {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ} [البقرة:٢٠٦] أي: هذا الذي يبطن ما لا يظهر، ويظهر ما لا يبطن، والعزة هنا بمعنى: حمية الجاهلية ، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٦].

وإلى هذا المعنى أشار صاحب التحرير والتنوير فقال " وقوله: بالإثم الباء فيه للمصاحبة أي أخذته العزة الملابسة للإثم والظلم وهو احتراس لأن من العزة ما هو محمود قال تعالى: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين [المنافقين: ٨] أي فمنعته من قبول الموعظة وأبقته حليف الإثم الذي اعتاده لا يرعوي عنه وهما قرينان." (١)

" وذلك الإثم هو ترك الالتفات إلى هذا الوعظ وعدم الإصغاء إليه، أو من قوله «أخذته الحمى» أي لزمته، و «أخذه الكبر» أي اعتراه ذلك والمعنى لزمته العزة الحاصلة بسبب الإثم الذي في قلبه، وذلك الإثم هو الكفر والجهل وعدم النظر في الدلائل "(٢)

"«فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ، وَلَبِئْسَ الْمِهادُ!» . .

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٥٥

(٢) رغائب الفرقان للنيسابوري ١/٥٧٦

حسبه! ففيها الكفاية! جهنم التي وقودها الناس والحجارة. جهنم التي يكبكب فيها الغاوون وجنود إبليس أجمعون. جهنم الحطمة التي تطلع على الأفئدة. جهنم التي لا تبقي ولا تذر. جهنم التي تكاد تميز من الغيظ! حسبه جهنم «وَلَبِئْسَ الْمِهادُ!» ويا للسخرية القاصمة في ذكر «الْمِهادُ» هنا.. ويا لبؤس من كان مهاده جهنم بعد الاعتزاز والنفخة والكبرياء"(١)

والغرض من الاحتراس هنا نفي الذم عن العزة مطلقا ، فمنها ما هو محمود ، ومنها ما يكون مذموم كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

٨- (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾) [البقرة: ٢١٨]

" بعد أن بينت الآيات السابقة ما كان عليه المشركون أو الكفار من الشر والمنكر وقتال المسلمين حتى يردوهم عن دينهم، ويحاولوا استئصال الإسلام من قلوبهم. ومن يوافقهم ويرتد عن دينه ، بين هنا حال المجاهدين في سبيل الله كعبد الله بن جحش وأمثاله، فهم الذين صدقوا بالله ورسله، وفارقوا الأهل والأوطان، وتركوا مساكنة المشركين في ديارهم، وكرهوا سلطان المشركين "(٢)

هؤلاء المؤمنون لم يكن إيمانهم أو هجرتهم أو جهادهم لسبب دنيوي وإنما كان ابتغاء مرضات الله تعالى وطلبا لحصول الثواب منه وحده ، وهذا ما ينبئ عنه قوله تعالى { في سبيل الله } وهو احتراس من بقية

(١) تفسير الظلال ٢٠٥/١

(٢) التفسير المنير ٢٦٢/٢

صور الهجرة والجهاد، إذ لا يعتد شرعا إلا بما كان في سبيل الله على ما شرعه في الكتاب المنزل والسنة المطهرة .

ولذا ورد في الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه. (١)

" وجمعَ بينَ هذه الخصالِ ترغيبًا، وإن كان الثوابُ حاصلًا بكلِّ واحدةٍ منها." (٢)

"ولقد بين سبحانه جزاءهم فقال : ﴿أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ أي إن أولئك المتصفين بهذه الصفات ليس من شأنهم أن يخافوا العذاب لخطأ غير مقصود في الجهاد، بل إنهم يرجون الرحمة والثواب، ومن رجا طلب، ومن خاف هرب فلا تخافوا في الجهاد إلا الله، ومن أخطأ فله أجر "(٣)

" ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكرهم الجديرون بأن ينالوا رحمة الله والله عظيم المغفرة ، واسع الرحمة." (٤)

والغرض من مجيء الاحتراس في الآية الكريمة وهو قوله { في سبيل الله } لبيان الهجرة الخالصة لله عز وجل .

---

(١) صحيح البخاري كتاب / بدء الوحي ، باب /كيف كان بدء الوحي ، ٦/١ رقم (١)

(٢) فتح الرحمن لمجير الدين المقدسي ٣٠٧/١

(٣) زهرة التفسير ٦٩٥/٢

(٤) صفوة التفسير للصابوني ١٢٣/١

٩- (لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾) [ال عمران: ١١١]

" لما رغب الله المؤمنين في التصلب في إيمانهم وترك الالتفات إلى أقوال الكفار وأفعالهم بقوله {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ} رغبهم فيه من وجه آخر ، وهو أنهم لا قدرة لهم على الاضرار بالمسلمين إلا بالقليل من القول الذي لا عبرة به ، ولو أنهم قاتلوا المسلمين صاروا منهزمين مخذولين ، وإذا كان كذلك لم يجب الالتفات إلى أقوالهم وأفعالهم (١)

"قوله تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى ﴾ يعني كذبهم وتحريفهم وبُهْتَهم ؛ لا أنَّه تكون لهم الغَلَبَة .

فالاستثناء متَّصِل ، والمعنى لن يضروكم إلاَّ ضراً يسيراً ؛ فوقع الأذى موقع المصدر. (٢)"

" ﴿ وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ﴾ ، هذه مبالغة في عدم مكافحة الكفار للمؤمنين إذا أرادوا قتالهم ، بل بنفس ما تقع المقابلة ولوا الأدبار ، فليسوا ممن يغلب ويقتل وهو مقبل على قرنه غير مدبر عنه.

وهذه الجملة جاءت كالمؤكدة للجملة قبلها ، إذ تضمنت الإخبار أنهم لا تكون لهم غلبة ولا قهر ولا دولة على المؤمنين ، لأنّ حصول ذلك إنما يكون سببه صدق القتال والثبات فيه ، أو النصر المستمد من الله ، وكلاهما ليس لهم.

---

(١) مفاتيح الغيب ــ ٨ / ١٥٨ ــ ١٥٩

(٢) تفسير القرطبى ١٧٣/٤ ــ ١٧٤

وأتى بلفظ الإدبار لا بلفظ الظهور ، لما في ذكر الإدبار من الإهانة دون ما في الظهور ، ولأن ذلك أبلغ في الانهزام والهرب." (١)

وفيما ذكره الله تعالى كفاية في الدلالة على هزيمة الكفار وخزيهم ولكنه أتى بما يدفع الإيهام ففي قوله تعالى ﴿ ثم لا ينصرون﴾ احتراس جيء به لبيان أن توليتهم كانت عن هزيمة وخزي لا عن نصر ومنعة ، أو متحالفين مع غيرهم ، ولا يستطيع أحد مهما أوتي من القوة أن ينصرهم ، وإلى هذا المعنى أشار الطاهر بن عاشور فقال " وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ احتراس أي يولوكم الأدبار تولية منهزمين لا تولية متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة، أو متأملين في الأمر . " (٢)

" وفي هذه الآية دلالة واضحة على نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم ولكونها من الإخبار بالغيب الذي وافقه الواقع ؛ لأن يهود بني قينقاع وبني قريظة والنضير ويهود خيبر حاربوا المسلمين ولم يثبتوا ولم ينالوا شيئاً منهم ولم تخفق لهم بعد ذلك راية ولم يستقم أمرهم ولم ينهضوا بجناح – " (٣)

ولعل هذا ما ينبئ عنه الاحتراس في قوله { ثم لا ينصرون } فالغرض منه : نفي النصرة عنهم في الحاضر وفي المستقبل .

١٠- (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم

(١) البحر المحيط ٣ /٣٢ ــ ٣٣

(٢) التحرير والتنوير ٣ /١٩٣

(٣) روح المعاني للآلوسي ٤ /٢٩

مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾) [النساء: ٩٢]

" بعد أن ذكر الله تعالى أحكام قتال المنافقين، والذين يعاهدون المسلمين على السلم ثم يغدرون بهم ويعينون أعداءهم، ذكر هنا حكم قتل من لا يحل قتله عمدا أو خطأ، سواء كان من المؤمنين أو المعاهدين والذميين. "(١)

" ومن شأن المؤمن أن ينتفى عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البتة، إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد، بأن يرمى كافرا فيصيب مسلما. أو يرمى شخصا على أنه كافر فإذا هو مسلم." (٢)

" لكن إن وقع منه القتل له على سبيل الخطأ فإن دم القتيل لا يذهب هدرا، بل على من قتل أخاه المؤمن خطأ «تحرير رقبة مؤمنة» أى: إعتاق نفس مؤمنة، وعليه كذلك دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ أى: مؤداة إلى ورثة القتيل عوضا لهم عما فاتهم من قتيلهم.

وقوله إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا أى إلا أن يتصدق أهل القتيل بهذه الدية على القاتل، بأن يتنازلوا عنها له على سبيل العفو والصفح . وعبر- سبحانه- عن العتق بالتحرير في قوله فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ للاشعار بأن الحرية للعبيد مقصد من مقاصد الإسلام، وأن شريعته قد أوجبت على أتباعها أن يعتقوا الأرقاء إذا ما وقعوا في بعض الأخطاء حتى يتحرر أكبر عدد من الرقاب.

---

(١) التفسير المنير ٢٠٠/٥

(٢) تفسير الكشاف ٥٤٨/١

والتعبير عن النفس بالرقبة من باب التعبير عن الكل بالجزء. وكان التعبير بذلك للإشارة إلى أن الرق غل معنوي في الرقاب، وأن المؤمن الصادق في إيمانه هو الذي يبذل قصارى جهده في فك الرقاب من قيدها.

وقيد الرقبة المحررة بأن تكون مؤمنة لتخرج الكافرة، إذ الإسلام يحرص على تحرير الأرقاء المؤمنين دون الكافرين." (١)

" (فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) أي فإن كان المقتول من أعدائكم وهو مؤمن كالحارث بن يزيد كان من قريش وهم أعداء النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون فى حرب معهم ولم يعلم المسلمون إيمانه لأنه لم يهاجر وقد قتله عياش حين خروجه مهاجرا وهو لم يعلم بذلك، ومثله كل من آمن في دار الحرب ولم يعلم المسلمون بإيمانه حين قتله– فالواجب على قاتله عتق رقبة من أهل الإيمان فقط، ولا تجب الدية لأهله لأنهم أعداء يحاربون المسلمين فلا يعطون من أموالهم ما يستعينون به على قتالهم والتنكيل بهم . "(٢)

وعلى هذا يكون التعبير بقوله وهو مؤمن احتراس لدفع توهم غير مراد حيث قال الإمام الطاهر بن عاشور قوله : " وهو مؤمن احتراس ودفع للتوهم عند الخبر عنه بقوله: من قوم عدو لكم أن يظن أحد أنه أيضا عدو لنا في الدين." (٣)

---

(١) التفسير الوسيط للطنطاوي ٣/٢٧٥

(٢) تفسير المراغي ٥/١٢١

(٣) التحرير والتنوير ٥/١٦٢

وبناءا على ما سبق فيكون الغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة ، وهو التعبير بقوله تعالى { وهو مؤمن } : دفع توهم غير المراد حتى لا يتوهم البعض أن العداوة بين المسلمين وغيرهم تكون عداوة مطلقة فاستثنت الآية من هذه العداوة من آمن منهم ، وهذا ما ينبئ عنه الاحتراس في الآية الكريمة .

١١- (لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾) [النساء : ٩٥]

" إن الله تعالى ينفي أن يستوي في الأجر والمنزلة عنده تعالى من يجاهد بماله ونفسه ومن لا يجاهد بخلاً بماله. وضناً بنفسه، واستثنى تعالى أولي الأعذار من مرض ونحوه فإن لهم أجر المجاهدين وإن لم يجاهدوا لحسن نياتهم، وعدم استطاعتهم، فلذا قال : {وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى} التي هي: الجنة،"(١)

وقوله {وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}: احتراس لئلا يقنط القاعدون فهم من أهل الوعد وإن قصروا في هذا الباب، فأبواب الدين كثيرة فمن قصر في باب أو حيل بينه وبين الولوج منه فليعدل إلى باب آخر يسره الله عز وجل له، فلن يعدم باب خير يليق بحاله، وذلك من فضل الله عز وجل .

(١) أيسر التفاسير للجزائري ٥٢٨/١

فمن فتح له باب من الصلاة فليلج منه، ومن فتح له باب من الزكاة فليلج منه ..... إلخ .

ويشير إلى هذا المعنى صاحب التحرير والتنوير فيقول "وهذه الآية أصل في تفاضل أهل الفضل فيما فضلوا فيه ، وأن الفضل ثابت للذين أسلموا بعد الفتح من أهل مكة وغيرهم. وبئس ما يقوله بعض المؤرخين من عبارات تؤذن بتنقيص من أسلموا بعد الفتح من قريش مثل كلمة «الطلقاء» وإنما ذلك من أجل حزازات في النفوس قبلية أو حزبية، والله يقول: ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ [الحجرات: ١١] "(١)

" وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال لما رجع من غزوة تبوك ودنا من المدينة قال: «إنّ في المدينة لأقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا كانوا معكم فيه» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة قال: «نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر» " (٢)

وبناءً على ما سبق فيكون الغرض من الاحتراس في الآية الكريمة : فتح أبواب الخير لكل من آمن بالله عز وجل ، فمن أغلق في وجهه باب بعذر شرعي أو بضر أصابه ، فتح له أبواب أخرى من طاعة الله تعالى ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى { وكلا وعد الله الحسنى }

" ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ أي وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالثواب الوافر العظيم ﴿ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ أي منازل بعضها أعلى

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧٥/٢٧

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب /من حبسه العذر عن الغزو ٨/٦ رقم (٤٤٢٣)

من بعض مع المغفرة والرحمة وفي الحديث «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» ." (١)

١٢- (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾) [المائدة: ١٨]

يحكى الله تعالى عن اليهود والنصارى افتراءهم فقال ﴿وَقَالَتِ اليهود والنصارى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أي نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء ونحن أحباؤه لأننا على دينه (٢)قال ابن كثير: أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا(٣)

"وقوله: وَأَحِبَّاؤُهُ: احتراس، إذ من الأبناء من يسخط عليهم آباؤهم، فاحترسوا إمعانا في الدعوى بقيد المحبة، وهي كسابقتها دعوى تفتقر إلى البرهان." أي نحن لسنا أبناء الله فقط وإنما أحباؤه فهو يحبنا وينعم علينا ويخصنا بمزيد كرمه وفضله ومنه ، ولسنا عرضة لعذابه أو انتقامه ،"{قُلْ} يا محمَّد إلزامًا وتبكيتًا إذا كان الأمر كما زعمتم {فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ} الله سبحانه وتعالى {بِذُنُوبِكُمْ} في الدنيا كما ترون من تخريب

---

(١) صفوة التفاسير الصابوني ٢٧٣/١ والحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب / الجهاد والسير ، باب / درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي ١٦/٤ رقم (٢٧٩٠)

(٢) صفوة التفاسير للصابوني ٣٠٨/١

(٣) تفسير بن كثير ٤٤/٢

الوثنيين لمسجدكم الأكبر، ولبلدكم المرة بعد المرة، ومن إزالة ملككم من الأرض، والأب لا يعذب ابنه، والحبيب لا يعذب حبيبه، فلستم إذًا أبناء الله ولا أحباؤه {بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ}؛ أي: من جملة ما خلق الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه لا يحابي أحدًا "(١)

فيكون الغرض من الاحتراس في الآية الكريمة ، إبطال دعوى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحبائه فكيف يكون كذلك وهم مندرجون فيمن يعذبهم الله يوم القيامة ، فهي دعوة تفتقر إلى الدليل او البرهان ، وهذا ما وضحه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { وأحباؤه}

" يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وقد شاء أن يعذّب من مات على الكفر؛ عدلا، وأن يغفر لمن تاب عن الكفر؛ فضلا، ثم هو بعد أن يتوب من الكفر إن واقع المعصية فأمره إلى الله، إن شاء أن يعفو وإن شاء أن يعذّب. وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وفي هذا تنبيه على عبودية المسيح لأن الملك والنبوة متنافيان . وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ. أي: المرجع والمآب وفي هذا تنبيه ووعيد." (٢)

١٣- (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾) [المائدة: ١١٨]

" بعد أن أجاب عيسى على سؤال ربه تلك الإجابة الموفقة في الآيات السابقة . فوض الأمر إليه – سبحانه– في شأن قومه في هذه الآية .

---

(١) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ١٨٢/٧

(٢) الأساس في التفسير ١٣٢٥/٣

فقال- كما حكى القرآن عنه إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. "(١)

" أي إن تعذب من أرسلتنى إليهم فبلّغتهم ما أمرتنى به من توحيدك وعبادتك فضلّ منهم من ضل وقالوا مالم أقله، واهتدى منهم من اهتدى فلم يعبدوا معك سواك، فإنهم عبادك وأنت الرحيم بهم، ولست أنا ولا غيرى من الخلق بأرحم بهم منك ، وإنما تجزيهم بحسب علمك بما يظهرون وما يبطنون، فأنت العليم بالمؤمن المخلص فى إيمانه، وبمن أشرك بك غيرك أو بمن أطاعك وبمن عصاك وأنت عالم الغيب والشهادة تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. "(٢) " وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فلا عجز ولا استقباح فإنك القادر القوي على الثواب والعقاب، الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم، فإن عذبت فعدل وإن غفرت ففضل. وعدم غفران الشرك بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع الترديد والتعليق. "(٣)

وفي تذييل الآية بقوله العزيز الحكيم " وكان الظاهر يستلزم أن تكون الفاصلة هنا: " إنك أنت الغفور الرحيم ".

وسر العدول: أنه لا يغفر لمن يستحق العقاب إلا مَن ليس فوقه أحد يَرُدُّ عليه حكمه. عزيز لا يُغلب.

---

(١) التفسير الوسيط للطنطاوي ٣٥١/٤

(٢) تفسير المراغي ٦٤/٧

(٣) تفسير البيضاوي ١٥١/٢

وإذا كان الأمر – كذلك – فـ " الحكيم " لا يضع الشيء إلا في موضعه فلا يُتهم في غفرانه لمن يستحق العقاب. ففى الوصف بـ" الحكيم " احتراس حسن لأن الحكمة فيما فعل. "(١)

" قال الرازيّ: قال قوم: لو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم، أشعر ذلك بكونه شفيعا لهم. فلما قال: فإنك أنت العزيز الحكيم، دل ذلك على أن غرضه تفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى، وترك التعرض لهذا الباب من جميع الوجوه. (٢)

" و ما ظنه بعض المفسرين من أن مقتضى الظاهر الْغَفُورُ الرَّحِيمُ بدل الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ كما وقع في مصحف عبد الله بن مسعود– فقد غاب عنهم سر المقام. لأنه ظن تعلقه بالشرط الثاني فقط، لكونه جوابه. وليس كما توهم. بل هو متعلق بهما. ومن له الفعل والترك عزيز حكيم. فهذا أنسب وأدق وأليق بالمقام ، أو هو متعلق بالثاني، وإنه احتراس، لأن ترك عقاب الجاني قد يكون لعجز ينافي القدرة، أو لإهمال ينافي الحكمة. فبيّن أن ثوابه وعقابه مع القدرة التامة والحكمة البالغة. "(٣)

ومما قيل في تفسير هذه الآية " (إن تعذبهم) أي من أقام على الكفر منهم (فإنهم عبادك) أي تصنع بهم ما شئت وتحكم فيهم بما تريد لا اعتراض عليك (وإن تغفر لهم) أي لمن آمن منهم (فإنك أنت العزيز) أي القادر على ذلك (الحكيم) في أفعاله، قيل: قاله على وجه الاستعطاف كما يستعطف السيد بعبده، ولهذا لم يقل إن تعذبهم فإنهم عصوك.

---

(١) خصائص التعبير القرآني لعبد العظيم المطعني ١/ ٢٣٠ ، الإيضاح للخطيب القزويني ١/ ٣٢٥ ، أنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم ١/٣٠٧ .

(٢) تفسير الرازي ١١٤/١٢

(٣) تفسير القاسمي ٣٠٣/٤

وقيل: قاله على وجه التسليم لأمر الله والانقياد له، ولهذا عدل عن الغفور الرحيم إلى العزيز الحكيم، قال ابن عباس: يقول عبيدك قد استوجبوا العذاب بمقالتهم وإن تغفر لهم أي من تركت منهم ومد في عمره حتى أهبط من السماء إلى الأرض لقتل الدجال فزالوا عن مقالتهم ووحدوك فإنك أنت العزيز الحكيم. "([1])

والغرض من مجيء الاحتراس في الآية الكريمة هو : بيان أن الثواب والعقاب لا يكونان إلا بالقدرة التامة والحكمة البالغة . وهذا ما ينبئ عنه قوله تعالى { العزيز الحكيم }

١٤- (وَلِكُلّ دَرَجَتٌ مّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾) [الانعام: ١٣٢]

لما بيّن سبحانه أن لأحد الفريقين دار السلام ، والآخر دار الملام ، قال جامعاً للفريقين عاطفاً على قوله { لهم دار السلام عند ربهم } : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ([2])

" بين الله- سبحانه- أن الدرجات إنما هي على حسب الأعمال فقال- تعالى- وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا أى: ولكل من المكلفين جنا كانوا أو إنسا درجات أى منازل ومراتب مِمَّا عَمِلُوا أى: من أعمالهم صالحة كانت أو سيئة أو من أجل أعمالهم إذ الجزاء من جنس العمل والعمل متروك للناس يتسابقون فيه، والجزاء ينتظرهم عادلا لا ظلم فيه."([3])

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن ٩٣/٤

(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ٢٧٤/٧

(٣) التفسير الوسيط للطنطاوي ١٨٣/٥

قوله : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ ﴾ تغليب (١) حيث إن الدرجات خاصة بالمؤمنين والدركات خاصة بالكافرين والحديث عن الفريقين لكنه ذكر الدرجات تغليبا وفائدة التغليب هنا بيان أن رحمته سبقت غضبه،ولما كان لفظ "كل" مرادا به جميع أهل القرية، وأتى بلفظ ﴿الدَّرَجَاتُ﴾ كان إيماء إلى تغليب حال المؤمنين لتطمئن نفوس المسلمين من أهل مكة بأنهم لا بأس عليهم من عذاب مشركيها. (٢)

فقوله" {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا } احتراس على قوله: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ} [الأنعام: ١٣١] للتنبيه على أن الصالحين من أهل القرى الغالب على أهلها الشرك والظلم لا يحرمون جزاء صلاحهم. "(٣)

(١) التغليب هو : أن يغلب على الشيء ما لغيره لتناسب بينهما أو اختلاط كالأبوين في الأب والأم والمشرقين والمغربين والخافقين في المشرق والمغرب، الكليات لأبى البقاء الكفومى ٤٢٨/١

(٢) التحرير والتنوير ٨٨/٨

(٣) التحرير والتنوير ٧٢/٧

والغرض من مجيء الاحتراس في الآية الكريمة ، هو التنبيه على ان الصالحين من المؤمنين لا يحرموا الثواب أو الأجر ، وإن وجدوا في وسط قوم ظالمين ، فجاء الاحتراس في قوله تعالى {ولكل درجات مما عملوا } ؛ ليدفع هذا التوهم حتى لا يظن البعض أن العذاب يعم الجميع الصالح والطالح .

" {وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} قال ابن جرير: أي وكل ذلك من عملهم يا محمد بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه." (١)

١٥- (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾) [التوبة: ١٠٨]

بعد أن فضح الله المنافقين وبين سوء نيتهم وما تنطوي عليه ضمائرهم من الشر والكيد لرسول الله حيث أرادوا قتله والقضاء عليه ، نهى الله نبيه عن الصلاة في ذلك المسجد الذي أعدوه لكي يصلي فيه فقال { لا تقم فيه أبدا } .

أي "لا تقم، يا محمد، في المسجد الذي بناه هؤلاء المنافقون، ضرارًا وتفريقًا بين المؤمنين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله. " (٢)

" ثم أقسم، فقال: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التقوى﴾، أي: ابتدئ أساسه وبناؤه على طاعة الله عز وجل، ورضوانه ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾، ابتدئ بنيانه،

(١) تفسير الطبري ١٢٥/١٢

(٢) تفسير الطبري ٤٧٤/١٤

﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾، أي: أولى أن تقوم فيه، مصلياً لله، عز وجل. (١)

" وقوله: لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه احتراس مما يستلزمه النهي عن الصلاة فيه من إضاعة عبادة في الوقت الذي رغبوه للصلاة فيه فأمره الله بأن يصلي في ذلك الوقت الذي دعوه فيه للصلاة في مسجد الضرار أن يصلي في مسجده أو في مسجد قباء، لئلا يكون لامتناعه من الصلاة من حظوظ الشيطان أن يكون صرفه عن صلاة في وقت دعي للصلاة فيه، وهذا أدب نفساني عظيم.

وفيه أيضا دفع مكيدة المنافقين أن يطعنوا في الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه دعي إلى الصلاة في مسجدهم فامتنع، فقوله: أحق وإن كان اسم تفضيل فهو مسلوب المفاضلة لأن النهي عن صلاته في مسجد الضرار أزال كونه حقيقا بصلاته فيه أصلا. " (٢)

وهذا المسجد " فيه ثلاثة أقوال: أحدها : أنه مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، قاله أبو سعيد الخدري ورواه مرفوعاً. الثاني: أنه مسجد قباء ، قاله الضحاك وهو أول مسجد بني في الإسلام ، قاله ابن عباس وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك .

الثالث: أنه كل مسجد بني في المدينة أسس على التقوى ، قاله محمد بن كعب ." (٣)

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه ٣١٥٥/٤

(٢) تحرير والتنوير ٣١/١١

(٣) تفسير الماوردي ٤٠٢/٢ ، الدر المنثور ٢٧٨/٤

والغرض من الاحتراس في الآية الكريمة هو دفع توهم عدم صلاة النبي في أي مسجد من المساجد وهذا ما ينبئ عنه النهي الوارد في الآية الكريمة ، فجاء هذا الاحتراس ليعلم النبي أنه يجب عليه ، أن يصلي في الوقت الذي دعي للصلاة في هذا المسجد ، عليه أن يصلي في المساجد الأخرى مثل مسجده ومسجد قباء ، ولعل هذا ما نفهمه من قوله تعالى { لمسجد اسس على التقوى من اول يوم أحق أن تقوم فيه } وهذا ما ينبئ عنه الاحتراس في الآية الكريمة

١٦- (إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣) [يونس: ٣]

"بعد أن حكى الله تعالى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة، ورد عليهم تعجبهم بأنه من الممكن الإيحاء إلى رجل يبشر على الأعمال الصالحة بالثواب، وعلى الأعمال الفاسدة بالعقاب، ذكر تعالى أمرين:

الأول هنا: إثبات أن لهذا العالم إلها قادرا نافذ الحكم بالأمر والنهي.

والثاني في الآية التالية: إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة، ليحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر بهما الأنبياء." (١)

"والمعنى: إن ربكم ومالك أمركم- الذي عجبتم من أن يرسل إليكم رسولا منكم هو الله الذي خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام أي أوقات." (٢)

---

(١) تفسير الرازي ٨/١٧

(٢)التفسير الوسيط للطنطاوي ٢٠/٧

" ثم استوى على العرش استواء يليق بعظمته وجلاله، ولا يعلمه إلا هو، والعرش هو كرسيه أو مركز تدبير الخلائق، وهو أعظم المخلوقات وسقفها، ولا يعلم أحد حقيقة العرش إلا هو سبحانه وتعالى.

والله تعالى في استوائه على العرش يدبر أمر الخلائق والملكوت بما يتفق مع حكمته وعلمه، ويقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته. "(١)

" ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ هذا إنذار للذين يعصون من خلقه بأنهم عند العذاب لَا تنفعهم شفاعة الشافعين وما لهم من شفيع يشفع ولا قربة يفتدون بها أنفسهم فإنه لَا شفيع إلا من بعد إذنه، والتعبير بقوله تعالى: (مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) إشارة إلى أنه محكوم بسلطان اللَّه تعالى غير خارج عن ملكه لَا يفرض عليه." (٢)

فقد يفهم من الآية الكريمة عدم ثبوت الشفاعة لأحد من الخلق حتى ولو كان الشفيع محمد ﷺ ، فجيء بالاحتراس حتى يدفع التوهم الذي يفهم من سياق الآية الكريمة ويثبت الشفاعة للنبي ﷺ ومن ارتضاهم من خلقه ، ويوضح لنا هذا المعنى الإمام الطاهر بن عاشور بقوله " وزيادة إلا من بعد إذنه احتراس لإثبات شفاعة النبي ﷺ ، قال تعالى: (وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ) [الأنبياء: ٢٨] . والمقصود من ذلك نفي الشفاعة لآلهتهم من حيث إنهم شركاء لله في الإلهية، فشفاعتهم عنده نافذة كشفاعة الند عند نده. " (٣)

---

(١) التفسير المنير ١٠٣/١١

(٢) زهرة التفاسير صـ ٣٥١٣

(٣) التحرير والتنوير ٦/ ٨٨

وبناء على ما سبق فيكون الغرض من مجيء الاحتراس في الآية الكريمة ، وهو قوله { إلا من بعد إذنه } إثبات الشفاعة لمن ارتضاه الله عزوجل لها ، ونفيها عمن أراد نفيها عنه ، كآلهتهم وشركائهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، فالاحتراس هنا لبيان ان نفي الشفاعة ليس نفيا مطلقا ، بل هو قاصر على إذن الله وإرادته .

١٧- (وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾) [هود: ٢٩]

" يقول نوح عليه السلام مخاطبا قومه : لا أسألكم على نصيحتى لكم ودعوتكم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له إلا خيركم ومصلحتكم ولا أريد بذلك مالا فأكون متهما فيه عندكم لمكانة حبّ المال من أنفسكم واعتزازكم به علىّ وعلى الفقراء من أتباعى، فما أجري على ذلك إلا على الله الذي أرسلنى، فهو الذي يجازينى ويثيبنى عليه.

ومثل هذه المقالة قد صدرت من جميع الأنبياء بعده، فجاءت على لسان هود وصالح وشعيب ومحمد، صلوات الله عليهم أجمعين . (١)

" وجملة إن أجري إلا على الله احتراس لأنه لما نفى أن يسألهم مالا، والمال أجر، نشأ توهم أنه لا يسأل جزاء على الدعوة فجاء بجملة إن أجري إلا على الله احتراسا. والمخالفة بين العبارتين في قوله: مالا وأجري تفيد أنه لا يسأل من الله مالا ولكنه يسأل ثوابا. والأجر:

(١) تفسير المراغي ٢٨/١٢

العوض على عمل. ويسمى ثواب الله أجرا لأنه جزاء على العمل الصالح. "(١)

والغرض من الاحتراس هنا : دفع توهم أنه عليه السلام لا يتقاضى اجرا على هذه الدعوة ، وهذا ما يشير اليه قوله تعالى { لا أسألكم عليه أجرا } ، فجيء بالاحتراس ليدفع هذا التوهم الذي يفهم من الآية الكريمة فقال { إن أجري إلا على الله }.

١٨- (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾) [هود: ٣٣]

" بعد أن ذكر الحق مقالتهم لنوح بأنه أكثر من مجادلتهم ، وطلبهم منه أن ينزل عليهم العذاب إن كان صادقا فيما يقول ، فقال لهم نوح عليه السلام

" ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِن شَاءَ﴾ يعني أن ذلك ليس موكولاً إليّ ولا هو مما يدخُل تحت قدرتي وإنما يتولاه الله الذي كفرتم به وعصيتموه يأتيكم بِهِ عاجلاً أو آجلاً إنْ تعلَّق به مشيئتُه التابعةُ للحكمة وفيه ما لا يَخفْى من تهويل الموعودِ فكأنه قيل الإتيانُ به أمرٌ خارجٌ عن دائرة القُوى البشرية وإنما يفعله اللَّهِ عزَّ وجلَّ "(٢)

"وقوله: {إِنْ شَاءَ} احتراس راجع إلى حمل العذاب على عذاب الدنيا. أي أن الله وحده هو الذي يملك أن ينزل العذاب بهم وليس لنوح أن ينزل العذاب بأحد من قومه .

---

(١) التحرير والتنوير ٥٥/١٢

(٢) تفسير أبي السعود ٢٠٤/٤

والعذاب الوارد تحت المشيئة هنا هو عذاب الدنيا لأن عذاب الآخرة واقع لا محالة ما داموا قد أشركوا بالله تعالى ، { إن الله لا يغفر أن يشرك ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء }

والغرض من الاحتراس في الآية الكريمة بيان أن الأمور كلها بيد الله عز وجل ، فهو القادر على إنزال العذاب بهم ، والمراد بالعذاب هنا هو : عذاب الدنيا ، فإن شاء أسقطه عليهم ، وإن شاء رفعه عنهم ، ولعل هذا ما يفيده الاحتراس الوارد في الآية الكريمة في قوله {إن شاء} .

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ما أنتم بناجين وفالتين من الوعيد، يريد أن العذاب واقع لا محالة. ولعل نوحا عليه السلام لم يكن له وحي من الله بأن يحل بهم عذاب الدنيا، فلذلك فوضه إلى المشيئة؛ أو لعله كان يوقن بنزوله بهم فيكون التعليق ب {إن شاء} منظورا فيه إلى كون العذاب معجلا أو مؤخرا. " (١)

١٩- (وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾) [هود: ٤٤]

" يذكر الله تعالى في هذه الآية بعضا مما حدث مع قوم سيدنا نوح عليه السلام من اغراقهم بالماء وإهلاكهم به ، وما حدث بعد نجاة نوح وقومه من الموحدين ، ثم ينبه الحق تعالى في ختام الآية الكريمة بقوله { وقيل بعدا للقوم الظالمين } إلى أن العذاب الذي حل بهؤلاء الكفار لم يكن إلا بسبب جحودهم وظلمهم ، ويشير إلى هذا المعنى صاحب إعراب القرآن وبيانه فيقول " «وقيل بعدا للقوم الظالمين» فإنه سبحانه لما أخبر

(١) التحرير والتنوير ٦١/١٢

بهلاك من هلك بالطوفان أعقبه بالدعاء على الهالكين ووصفهم بالظلم ليعلم أن جميع من هلك كان مستحقا للعذاب مستأهلا له احتراسا من ضعيف يتوهم أن الهلاك بعمومه قد شمل من لا يستحق العذاب فلما دعا على الهالكين علم أن كل من هلك كان مستحقا للهلاك لأنه قد ثبت بالبرهان أنه عادل فلا يدعو إلا على من يستحق الدعاء ووصفهم بعد الدعاء عليهم بالظلم فإن لم يكونوا ظالمين فقد دخل خبره الخلف وخبره منزه عن ذلك فوقع هذا الدعاء وهذا الوصف احتراسا من ذلك الذي قدر توهمه " (١)

والغرض من هذا الاحتراس بيان أن ماحل بهم بسبب جحودهم وظلمهم لأنفسهم .

٢٠- (وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣) [يوسف: ١٠٣]

" يخبر الله تعالى نبيه أن الإيمان به وبما جاء به من الوحي والتوحيد والبعث الآخر مثل هذا القصص كاف في التدليل على صحة نبوتك أيها الرسول الكريم وعلى وجوب الإيمان بما جئت به وتدعو إليه ومع هذا فأكثر الناس ولو حرصت على إيمانهم ما هم بمؤمنين، ولذلك عوامل من أبرزها أن الإيمان يتعارض مع ما ألفوا من الباطل والشر والفساد، لاسيما شهواتهم وأغراضهم الدنيوية ومن قبل ذلك أن من كتب الله شقاءه لا يؤمن بحال، ولذا فلا تحزن ولا تكرب"(٢)

وجملة{ ولو حرصت } ففيها نوع احتراس لئلا يظن الرسول البشري أن أمر الإيمان بيده، أو أنه مكلف بحمل الناس على الإيمان، فهداية الإلهام والتوفيق، هداية ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعۡلَمُ

(١) اعراب القرآن وبيانه لمحي الدين درويش ٣٦٣/٤

(٢) أيسر التفاسير للجزائري ٦٥٠/٢

بِالْمُهْتَدِينَ)، ليست إلا لله، عز وجل، وإنما كلف الرسول البشري بالبلاغ، فوظيفة الرسل: البيان، فلهم من الهداية هداية الدلالة والإرشاد، هداية: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

والغرض من الاحتراس هنا هو بيان أن هداية الناس أمر موكول إلى الله عز وجل ، وهذا ما أشارت إليه آيات كثيرة في القرآن الكريم ، فمهمة الرسل التبليغ والإنذار ، وهدايتهم لأقوامهم هداية دلالة وإرشاد ، ولعل هذا ما نفهمه من مجيء الاحتراس في قوله (وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣)

٢١- (الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صراط العَزِيزِ الحَمِيدِ ۝١) [ابراهيم: ١]

" (الر) من المتشابه الذي اختص به علم اللَّه تعالى، وهذه الحروف إذا جاء بعدها ذكر الكتاب كانت مبتدأ والكتاب خبره، وهي هنا كذلك، فقوله تعالى: (الر) مبتدأ خبره (كِتَابٌ) ، ويكون الابتداء فيه إشارة واضحة إلى أن هذا الكتاب مكون من تلك الحروف التي يتكون منها كلامكم، ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بمثله، فلا يدل هذا على أنه من عند أمثالكم من البشر، بل من عند خالق البشر، ويرشح لذلك كون الكتاب خبرا لهذه الحروف.

و (كِتَابٌ) التنكير فيه للتعظيم، والمعنى كتاب عظيم الشأن لَا يدرك كنهه، ولا تحيط به أفهام البشر، إلا إذا كان ذلك بتوفيق من اللَّه، وما يعلم تأويله إلا اللَّه، وأضف إلى ذلك ما يقوي مكانته أو يحققها، وهو أمران ذكرهما اللَّه تعالى:

الأمر الأول: أنه أضافه إلى اللَّه تعالى على أنه نازل من لدنه في سموه سبحانه، إلى منتهاه في نزوله إلى النبي – صلى الله عليه وسلم –، وهذا هو قوله تعالى: (أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ)، وبالإضافة إليه سبحانه بضمير الجمع؛ لأنه الضمير العائد إلى اللَّه خالق الوجود كله، عاقله وغير عاقله، إنسه وجنه، وهو الحكيم الخبير . "(١)

"{لتخرج الناس} ، أي: عامة قومك وغيرهم بدعائك إياهم {من الظلمات} ، أي: الكفر وأنواع الضلالة {إلى النور} ، أي: الإيمان والهدى. (٢)

قال الرازي: والآية دالة على أنّ طرق الكفر والبدعة كثيرة وأنّ طريق الحق ليس إلا واحداً؛ لأنه تعالى قال: {لتخرج الناس من الظلمات} وهي صيغة جمع، وعبر عن الإيمان والهدى بالنور، وهو لفظ مفرد وذلك يدل على أنّ طرق الجهل والكفر كثيرة وأنّ طريق العلم والإيمان ليس إلا واحداً." (٣)

" وقوله– سبحانه–: بِإِذْنِ رَبِّهِمْ احتراس لبيان أن نقل الناس من حال إلى حال إنما هو بإرادة– الله– تعالى– ومشيئته، وأن الرسول ما هو إلا مبلغ فقط، أما الهداية فمن الله وحده. "(٤)

والمعنى ان الله تعالى وحده هو الذي يقدر على هداية الناس فالهداية وعدمها ليس من اختصاص الرسول ، ولكنها بيد الله تعالى وحده ، قال تعالى { ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء } فلذلك أتي بقوله {

---

(١) زهرة التفاسير ٣٩٨١/٨

(٢) السراج المنير للخطيب الشربيني ١٦٧/٢

(٣) تفسير الرازي ٥٩/١٩

(٤) التفسير الوسيط للطنطاوي ٥١١/٧

بإذن ربهم } حتى لايتوهم أحد أن الرسول هو الذي يهدي الناس أو يخرجهم من الظلمات إلى النور .

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة نفي توهم أن الهداية من الرسل وإنما تكون بيد الله عز وجل وحده ، وهذا ما ينبئ عنه قوله تعالى { بإذن ربهم }.

" ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب فقال: {إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} أي: الموصل إليه وإلى دار كرامته، المشتمل على العلم بالحق والعمل به، وفي ذكر {العزيز الحميد} بعد ذكر الصراط الموصل إليه إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعز الله قوي ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة. "(١)

٢٢- (قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾) [النحل: ٢٦]

بعد أن بينت الآيات ما كان عليه اهل الكفر والضلال من انحراف عن منهج الله تعالى بينت هنا وجود الشّبه بين الكفار القدامى والجدد في الجرم والعقاب فقال: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

" أي مكر المجرمون بأنبيائهم وأرادوا إطفاء نور الله من قبل كفار مكة، وهذا تسلية له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "(٢)

"وذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالذين من قبلهم نمروذ بن كنعان حيث بنى بناء عظيما ببابل ورام الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها فأهب

---

(١) تفسير السعدي ٤١٢/١

(٢) صفوة التفاسير للصابوني ١١٤/٢

الله الريح فخر ذلك البناء عليه وعلى قومه فهلكوا والأولى أن الآية عامة في جميع المبطلين من المتقدمين الذين يحاولون إلحاق الضرر بالمحقين ومعنى المكر هنا الكيد والتدبير الذي لا يطابق الحق وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له صلى الله عليه و سلم بأن مكرهم سيعود عليهم كما عاد مكر من قبلهم على أنفسهم { فأتى الله بنيانهم } أي أتى أمر الله وهو الريح التي أخربت بنيانهم قال المفسرون : أرسل الله ريحا فألقت رأس الصرح في البحر وخر عليهم الباقي { من القواعد } "(١)

"في قوله تعالى «فخر عليهم السقف من فوقهم» لقائل أن يقول: السقف لا يكون إلا من فوق فما معنى ذكر من فوقهم والجواب انه احتراس من احتمال أن السقف قد يكون أرضا بالنسبة لغيرهم، فإن كثيرا من السقوف يكون أرضا لقوم وسقفا لقوم آخرين فرفع الله تعالى هذا الاحتمال بجملتين وهما قوله «عليهم» وقوله «خر» لأنها لا تستعمل إلا فيما يهبط أو يسقط من العلو إلى السفل. "(٢)

" ومعنى إتيان الله: إتيان أمره ، وقوله تعالى : مِنَ الْقَواعِدِ أي من جهة القواعد أي اجتثه من أصله وأبطل عملهم ، وهذا مقابل لقوله تعالى: مِنْ فَوْقِهِمْ ليفيد إحاطة العذاب من أعلى ومن أسفل. وقوله تعالى: مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ أي من حيث لا يحتسبون ولا يتوقّعون. "(٣)

---

(١) فتح القدير ٢٢٤/٣

(٢) إعراب القرآن وبيانه ٢٩٢/٥

(٣) التفسير المنير ١١٥/١٤

والغرض من هذا الاحتراس في الآية الكريمة بيان إحاطة العذاب بهم من كل جهة ، وهذا ما ينبئ عنه قوله تعالى { من فوقهم }

٢٣- (وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾) [النحل: ١٠١]

" التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه. فتبديل الآية رفعها بآية أخرى.

وجمهور المفسرين على أن المراد بالآية هنا: الآية القرآنية. وعلى أن المراد بتبديلها نسخها .

قال صاحب الكشاف : تبديل الآية مكان الآية هو النسخ ، والله- تعالى- ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح ، وما كان مصلحة بالأمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة . والله- تعالى- عالم بالمصالح والمفاسد، فيثبت ما يشاء، وينسخ ما يشاء بحكمته.. (١) .

وقال الجمل: قوله- تعالى-: وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ ... وذلك أن المشركين من أهل مكة قالوا: إن محمدا صلى الله عليه وسلم يسخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا، ما هذا إلا مفترى يتقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله- تعالى-: وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ ... والمعنى: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكما آخر (٢) .

قال الشيخ القاسمى عند تفسيره لهذه الآية: وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء المتقدمين. كآية موسى وعيسى وغيرهما من

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٢٨.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ٢ / ٥٩٨. ، تفسير الآلوسى ١٤/ ٢٣١.

الآيات الكونية الآفاقية، بآية أخرى نفسية علمية، وهي كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدركها العقل. (١)

فبدلت تلك– وهي الآيات الكونية– بآية هو كتاب العلم والهدى من نبي أمي صلى الله عليه وسلم . ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب، لأن قوله– تعالى– بعد ذلك: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ ... يدل دلالة واضحة على أن المراد بالآية، الآية القرآنية. "(٢)

" (والله أعلم بما ينزل) هذا احتراس لبيان أن التبديل الحاصل إنما هو لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى، وليس كما يشغب به الكفار من أن النسخ دليل على التناقض." (٣)

" أي والله أعلم بما هو أصلح للعباد وبما فيه خيرهم، فإنَّ مثل آياتِ هذا الكتاب كمثل الدواء يُعطى منه للمريض جرعات حتى يماثل الشفاء، ثم يستبدل بما يصلح له من أنواع أخرى من الأطعمة " (٤)

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة لبيان علم الله تعالى بما يصلح لعباده في ماضيهم وحاضرهم ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى {والله أعلم بما ينزل}.

ثم يحكي القرآن قولهم وشبهتهم التي ألقوها على رسول الله حيث " قالوا له: إنما أنت مفتر، أي كذاب، متقول على الله، تأمر بشيء ثم تنهى عنه، بل أكثرهم لا يعلمون ما في التغيير من حكمة ومصلحة للناس،

---

(١) تفسير القاسمى ١٠ /٣٨٥

(٢) وسيط ٢٣٦/٨

(٣) التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني ٢٠٣

لسامي وديع عبد الفتاح شحادة القدومي الناشر: دار الوضاح، الأردن – عمان

(٤) صفوة التفاسير للصابوني ١٣٢/٢

ومراعاة لظروف التغير والتطور، وأخذ بمبدإ التدرج في تنزيل الأحكام، فليس محمد بمفتر، وإنما يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، كما قال تعالى: ما نَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُسِها، نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة ٢/ ١٠٦] ."(١)

٢٤- (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣) [مريم: ٣]

هذه الآية الكريمة تبين حال نبي الله زكريا عليه السلام حين دعا ربه ان يرزقه الذرية الطيبة " والنداء: أصله رفع الصوت بطلب الإقبال. ومعنى الكلام: أن زكريا قال: يا رب، بصوت خفي. وإنما كان خفيا لأن زكريا رأى أنه أدخل في الإخلاص مع رجائه أن الله يجيب دعوته لئلا تكون استجابته مما يتحدث به الناس، فلذلك لم يدعه تضرعا وإن كان التضرع أعون على صدق التوجه غالبا. فلعل يقين زكريا كاف في تقوية التوجه. فاختار لدعائه السلامة من مخالطة الرياء. ولا منافاة بين كونه نداء وكونه خفيا، لأنه نداء من يسمع الخفاء. " (٢)

"في قوله «نِداءً خَفِيًّا» احتراس وهو هنا في كلمة خفيا فقد أتى بها مراعاة لسنة الله في إخفاء دعوته لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان فكان الأولى به أن يحترس مما يوهم الرياء أمام الناس الذين يحكمون على الظاهر ويجهلون حقيقة الدخائل أو لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبرة والشيخوخة ودفعا للفضول الذي يطلق الألسنة بمختلف أنواع الملام وقيل احترس من مواليه الذين خافهم وقيل ليس في الأمر

(١) التفسير المنير ١٤/٢٣٤

(٢) التحرير والتنوير ١٦/٩

احتراس وانما الكلام جار على حقيقته لأن خفوت صوته ناتج عن ضعفه وهرمه حيث يخفت الصوت ويكل اللسان وتغشى العينان وتثقل الآذان "(١)

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة لبيان أن السر والجهر عند الله تعالى سواء فهو يعلم السر والعلانية.

٢٥- (وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾) [طه: ٢٢]

" بعد أن ذكر القرآن المعجزة الأولى الدالة على نبوة موسى عليه السلام، وعلى صدق رسالته وهى العصا وما صدر منها من الأفاعيل حين ألقاها من يده، ثم عودتها سيرتها الأولى حين أخذها من الأرض- قفى على ذلك بذكر المعجزة الثانية التي آتاها إياه وهى معجزة اليد، فإنه كان إذا وضع يده اليمنى إلى جنبه الأيسر تحت العضد ثم أخرجها أضاءت كشعاع الشمس تعشى البصر (واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء) أي أدخل يدك اليمنى من طوق مدرعتك (قميصك) واجعلها تحت الإبط اليسرى تخرج بيضاء لامعة من غير برص ولا عيب. "(٢)

"مِنْ غَيْرِ سُوءٍ أى: تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض دون أن يعلق بها أى سوء من برص أو مرض أو غيرهما، وإنما يكون بياضها بياضا مشرقا بقدرة الله- تعالى- وإرادته.

---

(١) إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين درويش / ٥٨/٦

(٢) تفسير المراغي ١٠٥/١٦

قال الحسن البصري: أخرجها- والله- كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقى ربه- تعالى-.

وقوله: مِنْ غَيْرِ سُوءٍ احتراس لدفع توهم أن يكون بياضها بسبب مرض أو أذى، وهو متعلق بتخرج." (١)" فلو اقتصر على بَيْضاءَ لأوهم أن ذلك من برص أو بهق، فاحترس بقوله مِنْ غَيْرِ سُوءٍ." (٢)

وهذه المعجزة آية أخرى غير العصا التي واجهت بها فرعون وجنوده وهزمت بها السحرة .

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة دفع توهم أن يكون بياض يد موسى عليه السلام كان بسبب مرض أو برص . ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { بيضاء من غير سوء آية أخرى } .

٢٦- (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨) [النمل: ١٨]

يبين الله تعالى في هذه الآية بعضا من مظاهر فضله على نبي الله سليمان حيث أكرمه بمعرفة منطق الحيوان والطير والدواب فقال في معرض الحديث عن سليمان وجنوده حين مرورهم على أحد أودية النمل ، " ومعنى أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قطعوه وبلغوا آخره من قولهم «أتى على الشيء» إذا أنفذه وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند

(١) التفسير الوسيط ٩٨/٩

(٢) التفسير المنير ٢٠١/١٦ ، البرهان للزركشي ٥٦/٣

منقطع الوادي. ويجوز أن يقصد إتيانهم من فوق لأن الريح كانت تحملهم في الهواء فلذلك عدي ب «على» " (١)

"قالت نملة {يا أيها النمل ادخلوا} أي: قبل وصول ما أرى من الجيش {مساكنكم} ثم عللت أمرها فقالت: {لا يحطمنكم} أي: يكسرنكم ويهشمنكم، أي: لا تبرزوا فيحطمكم فهو نهي لهم عن البروز في صورة نهيه وهو أبلغ من التصريح بنهيهم لأن من نهى أميراً عن شيء كان لغيره أشدّ نهياً "(٢)

"ومن هنا نعلم أن القوي قد يهلك الضعيف من حيث لا يشعر، وأن الضعيف يجب أن يعد عدته، ويأخذ أهبته؛ لتوقي ضرر القوي " (٣)

" فقوله {وهم لا يشعرون} احتراس بين أن من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده أنهم لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألا يشعروا بها. "(٤)

فهم لم يقتلوا النمل عن قصد منهم وإنما كان عن غير قصد ؛ وذلك لكثرة عدد الجيش وقوتهم فلا يعبئون بالنمل لقلته وضعفه .

"وقولها هذا يدل على علمها بأنهم لو شعروا بهم ما آذوهم لأنهم أتباع نبيّ فهم رحماء، وإنما خاطبتهم خطاب من يعقل لأنها لما جعلت قائلة والنمل مقولاً له كما يكون في أولي العقل أجرت خطابهم، والنمل: اسم جنس معروف واحده نملة، ويقال نملة ونمل بضم النون وسكون الميم، ونملة ونمل بضمهما. "(٥)

---

(١) تفسير النيسابوري ٣٠٠/٥

(٢) السراج المنير للشربيني ٤٩/٣

(٣) أوضح التفاسير لمحمود حجازي صـــ ٤٥٩

(٤) البرهان للزركشي ٦٥/٣

(٥) السراج المنير للشربيني ٤٩/٣

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة بيان أن سليمان وجنوده إذا ارتكبوا خطأ ما فإنه لا يكون عن عمد أو قصد ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { وهم لا يشعرون } .

٢٧- (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾) [القصص: ٤٤]

الخطاب في قوله- تعالى-: وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ.. للرسول صلّى الله عليه وسلم والمراد بجانب الغربي: الجانب الغربي لجبل الطور الذي وقع فيه الميقات، وفيه تلقى موسى التوراة من ربه- تعالى-.

أى: وما كنت- أيها الرسول الكريم- حاضرا في هذا المكان، إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ أى، وقت أن كلفناه بحمل رسالتنا، وأنزلنا إليه التوراة، لتكون هداية ونورا له ولقومه." (١)

وما كنت من الشاهدين " لأنك لم تطلع على شيء من ذلك من قبله لأنك ما خالطت أحداً ممن حمل تلك الأخبار عن موسى عليه السلام ولا أحداً حملها ممن حملها عنه ولكن كان ذلك إليك منا"(٢)

وفي هذه الآية احتراس وهو أعجب احتراس وقع في كتاب الله وقد أبدع الإمام الزركشي وأجاد وأفاد في كتابه البرهان في علوم القرآن وهو يبين وجه الاحتراس الوارد في هذه الآية حيث قال " وأعجب احتراس وقع في القرآن قوله تعالى مخاطبا لنبيه عليه السلام: {وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر} الآية.

---

(١) التفسير الوسيط ٤١٢/١٠

(٢) السراج المنير للشربيني ١٠٣/٣

وقال حكاية عن موسى: {وناديناه من جانب الطور الأيمن} ،فلما نفى سبحانه عن رسوله أن يكون بالمكان الذي قضى لموسى فيه الأمر عرف المكان بالغربي ولم يقل في هذا الموضع [الأيمن] كما قال: {وناديناه من جانب الطور الأيمن} أدبا مع النبي صلى الله عليه وسلم أن ينفى عنه كونه بالجانب الأيمن أو يسلب عنه لفظا مشتقا من اليمن أو مشاركا لمادته ولما أخبر عن موسى عليه السلام ذكر الجانب الأيمن تشريفا لموسى فراعى في المقامين حسن الأدب معهما تعليما للأمة وهو أصل عظيم في الأدب في الخطاب." (١)

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة بيان مكانة النبي وعلو منزلته صلى الله عليه وسلم ، واستعمال الجانب الغربي دون الجانب الأيمن في حال نفى للكينونة أليق بمقام الرسول الكريم لخلوه من نفى كونه بالأيمن . ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { وما كنت بجانب الغربي } .

٢٨- (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾) [الاحزاب: ٤٠]

يرد الله تعالى على نقد من قالوا: إن محمدا تزوج حليلة ابنه، ففي هذه الاية يحدد- سبحانه- وظيفة رسوله صلّى الله عليه وسلّم ويثنى عليه بما هو أهله، فقال- تعالى-:

(١) البرهان للزركشي ٦٦/٣

"ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ أى: لم يكن محمد صلّى الله عليه وسلّم أبا لأحد من رجالكم أبوة حقيقية، تترتب عليها آثارها وأحكامها من الإرث، والنفقة والزواج ...

فالنبي حين نزول هذه الآية لم يكن أبا لأحد من الرجال فقد مات أولاده الذكور جميعا ، فكان من تبقى منهم بنات ، فذكر الرجال في الآية فن بلاغي لطيف وهو الاحتراس قال الإمام الطاهر بن عاشور " ومن رجالكم وصف ل أحد، وهو احتراس لأن النبيء صلى الله عليه وسلم أبو بنات .

والمقصود: نفي أن يكون أبا لأحد من الرجال في حين نزول الآية لأنه كان ولد له أولاد أو ولدان بمكة من خديجة وهم الطيب والطاهر (أو هما اسمان لواحد) والقاسم، وولد له إبراهيم بالمدينة من مارية القبطية، وكلهم ماتوا صبيانا ولم يكن منهم موجود حين نزول الآية.

والمنفي هو وصف الأبوة المباشرة لأنها الغرض الذي سيق الكلام لأجله والذي وهم فيه من وهم فلا التفات إلى كونه جدا للحسن والحسين ومحسن أبناء ابنته فاطمة رضي الله عنها إذ ليس ذلك بمقصود، ولا يخطر ببال أحد نفي أبوته لهم بمعنى الأبوة العليا، أو المراد أبوة الصلب دون أبوة الرحم.

وإضافة (رجال) إلى ضمير المخاطبين والعدول عن تعريفه باللام لقصد توجيه الخطاب إلى الخائضين في قضية تزوج زينب إخراجا للكلام في صيغة التغليط والتغليظ.

وأما توجيهه بأنه كالاحتراز عن أحفاده وأنه قال: من رجالكم وأما الأحفاد فهم من رجاله ففيه غرابة وهو أن يكون في الكلام توجيه بأن محمدا صلى الله عليه وسلم بريء من المخاطبين أعني المنافقين وليس

بينه وبينهم الصلة الشبيهة بصلة الأبوة الثابتة بطريقة لحن الخطاب من قوله تعالى وأزواجه أمهاتهم [الأحزاب: ٦]."(١)

ثم ختم- سبحانه- الآية الكريمة بقوله: وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً.

أى: وكان- عز وجل- وما زال، هو العليم علما تاما بأحوال خلقه، وبما ينفعهم ويصلحهم، ولذا فقد شرع لكم ما أنتم في حاجة إليه من تشريعات، واختار رسالة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلّم لتكون خاتمة الرسالات، فعليكم أن تقابلوا ذلك بالشكر والطاعة، ليزيدكم- سبحانه- من فضله وإحسانه." (٢)

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة نفي وصف الأبوة المباشرة للنبي لأنها الغرض الذي سيق الكلام لأجله ، ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { من رجالكم }.

٢٩- (وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾) [الاحزاب: ٥٨]

" ولما كان من أعظم أذاه (صلى الله عليه وسلم) أذى من تابعه ، وكان الأتباع لكونهم غير معصومين يتصور أن يؤذوا بالحق ، قال مقيداً للكلام بما يفهم : (والذين يؤذون المؤمنين) أي الراسخين في صفة الإيمان"(٣)

---

(١) التحرير والتنوير ٤٢/٢٢

(٢) التفسير الوسيط ٣١٨/١١

(٣) نظم الدرر للبقاعي ١٤٣/٦

" وعطف المؤمنات على المؤمنين للتصريح بمساواة الحكم وإن كان ذلك معلوما من الشريعة، لوزع المؤذين عن أذى المؤمنات لأنهن جانب ضعيف بخلاف الرجال فقد يزعهم عنهم اتقاء غضبهم وثأرهم لأنفسهم.
والمراد بالأذى: أذى القول بقرينة قوله: فقد احتملوا بهتانا لأن البهتان من أنواع الأقوال وذلك تحقير لأقوالهم، وأتبع ذلك التحقير بأنه إثم مبين. والمراد بالمبين العظيم القوي، أي جرما من أشد الجرم، وهو وعيد بالعقاب عليه."(١)

بغير ما اكتسبوا : أي ينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه .

"وفي قوله تعالى: «بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا» احتراس من الأذى الذي ينال المؤمنين والمؤمنات بما كسبت أيديهم.. فهذا الأذى لا يدخل في الحكم الذي ينال من يؤذونهم لغير ذنب ارتكبوه.. فالمؤمن والمؤمنة، قد يسرقان فتقطع أيديهما.. وهذا أذى لهما، ولكنه أذى لا يؤاخذ عليه من أقام الحدّ عليهما.. وهكذا كل أذى يقع على المؤمن والمؤمنة في مقابل ذنب..

هذا، ولم يأت هذا الاحتراس في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» حيث لا يتصور أن يكون من رسول الله كسب يستحق عليه أذى.. ومعاذ الله! فقد حرسه الله من كل سوء، وحماه من المعاثر والمزالق.. وأكثر من هذا فقد جعله الله في ضمانه، إذ ضمه إلى جنابه، وجعل أذاه أذى له!" (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٥/٢٢

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٧٥٠/١١

" فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً أى: فقد ارتكبوا إثما شنيعا، وفعلا قبيحا، وذنبا ظاهرا بينا، بسبب إيذائهم للمؤمنين والمؤمنات.

وجمع– سبحانه– في ذمهم بين البهتان والإثم المبين، للدلالة على فظاعة ما ارتكبوه في حق المؤمنين والمؤمنات، إذ البهتان هو الكذب الصريح الذي لا تقبله العقول ، بل يحيرها ويدهشها لشدته وبعده عن الحقيقة.

والإثم المبين : هو الذنب العظيم الظاهر البين، الذي لا يخفى قبحه على أحد." (١)

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة لبيان أن الأذى لا يدخل في الحكم الذي ينال من يؤذونهم لغير ذنب ارتكبوه. ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { بغير ما اكتسبوا }.

٣٠- (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾) [فاطر: ١٥]

" وقوله– تعالى–: يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ ... ينادي الله – سبحانه– الناس، ليعرفهم حقيقة أمرهم، ولأنهم لا غنى لهم عن خالقهم– عز وجل–.

أي: يا أيها الناس أنتم المحتاجون إلى الله– تعالى– في كل شئونكم الدنيوية والأخروية "(٢)

المحمود من جميع الموجودات، لأنه هو الخالق لكل شيء، وهو المنعم عليكم وعلى غيركم بالنعم التي لا تحصى.

---

(١) التفسير الوسيط ٢٤٥/١١

(٢) التفسير الوسيط ٣٣٧/١١

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم عرف الفقراء ؟ قلت: قصد بذلك أن يريهم أنه لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم، لأن الفقر مما يتبع الضعف، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر، وقد شهد الله- سبحانه- على الإنسان بالضعف في قوله: وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً ولو نكر لكان المعنى: أنتم بعض الفقراء».(١)

وجمع- سبحانه- في وصف ذاته بين الغنى والحميد، للإشعار بأنه- تعالى- بجانب غناه عن خلقه ، هو الذي يفيض عليهم من نعمه، وهو الذي يعطيهم من خيره وفضله، ما يجعلهم يحمدونه بألسنتهم وقلوبهم.

" وإتباع صفة {الْغَنِيُّ} بـ {الْحَمِيدُ} تكميل، فهو احتراس لدفع توهمهم أنه لما كان غنيا عن استجابتهم وعبادتهم فهم معذورون في أن لا يعبدوه، فنبه على أنه موصوف بالحمد لمن عبده واستجاب لدعوته . "(٢)

قال الآلوسى: " قوله الْحَمِيدُ أى: المنعم على جميع الموجودات، المستحق بإنعامه للحمد، وأصله المحمود، وأريد به ذلك عن طريق الكناية، ليناسب ذكره بعد فقرهم، إذ الغنى لا ينفع الفقير إلا إذا كان جوادا منعما، ومثله مستحق للحمد، وهذا كالتكميل لما قبله." (٣)

---

(١) تفسير الكشاف ٦٠٦/٣

(٢) التحرير والتنوير ١٤٢/٢٢

(٣) تفسير الآلوسي ٣٥٦/١١

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة دفع توهم أن الله لما كان غنيا عن عبادتهم يعطيهم الحق ألا يعبدوه فنبههم إلى أنه يحمد من يعبده ويثيبه على طاعته إياه ويعطيه جزيل الأجر والمثوبة . ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { والله هو الغني الحميد } .

٣١- (وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾) [الصافات: ٤٨]

" وقاصرات الطرف أي حابسات أنظارهن حياء. والطرف: العين، وهو مفرد لا جمع له من لفظه لأن أصل الطرف مصدر: طرف بعينه من باب ضرب، إذا حرك جفنيه، فسميت العين طرفا، فالطرف هنا الأعين، أي قاصرات الأعين، وذكر «عند» لإفادة أنهن ملابسات لهم في مجالسهم التي تدار عليهم فيها كأس الجنة، وكان حضور الجواري مجالس الشراب من مكملات الأنس والطرب عند سادة العرب، قال طرفة :

نداماي بيض كالنجوم وقينة ... تروح علينا بين برد ومجسد

وعين جمع: عيناء، وهي المرأة الواسعة العين. "(١)

" وفى هذا احتراس مما قد يفهم من وصفهن بأنهن قاصرات الطرف، أن هذا القصر عن داء بهذه العيون، وأن خلقتها هكذا مغلقة، أو متكسرة..

وكلّا، فإنها فى حقيقها عيناء.. ولكنه الحياء، والخفر، قد أمسكا بها عن أن تمتلىء بالنظر الحادّ، إلى الرجال!. "(٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١١٤/٢٣ والبيت لطرفة بن العبد في ديوانه ٣٢/١

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٩٨٢/١٢

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة دفع توهم أن يكون قصر الطرف بسبب مرض ونحوه ولكن ذلك دليل على كمال جمالها وشدة حيائها.

ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { قاصرات الطرف عين}.

٣٢- (فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤) [غافر: ١٤]

" فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة التي أمركم بها ولو كره الكافرون ذلك، فلا تلتفتوا إلى كراهتهم، ودعوهم يموتوا بغيظهم ويهلكوا بحسرتهم"(١)

ولو كره الكافرون: احتراس، فالدين خالص له شاء الخلق أو أبوا، فليس الأمر لهم ليستأذنوا، وليس الرزق إليهم ليستطعموا، فلا يملكون ضرا ولا نفعا، ولا حياة ولا نشورا، فعلام الخوف منهم وهم عبيد مربوبون وإن جحدوا وكابروا؟ .

فلو كان هناك فئة تدعم الباطل وتقف في وجه الحق فعلى المؤمن ألا يعبأ بهم لأن دين الله خالص له وهو الدين الصواب مهما عاند المعاندون فهؤلاء المجادلون الكارهون للدين لن يمنعوا المؤمن من عبادته لربه وإقامة شعائر دينه . لأن ستر الحقائق والتمويه والتضليل لَا يدوم مهما طال الزمان .

" وقد أخذ العلماء من هذا الآية الكريمة، وجوب إخلاص العبادة لله- تعالى- ووجوب الإكثار من التضرع إليه بالدعاء. "(٢)

---

(١) فتح القدير للشوكاني٤/٦٦٥

(٢) التفسير الوسيط ١٢/٢٧٠

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة وجوب إخلاص العبادة لله عز وجل مهما كره الكافرون أو جحد الجاحدون . ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { ولو كره الكافرون } .

٣٣- (وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١) [النجم: ١]

" يقسم تعالى بالنجم عند هويه أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار، لأن في ذلك من آيات الله العظيمة، ما أوجب أن أقسم به، والصحيح أن النجم، اسم جنس شامل للنجوم كلها، وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحي الإلهي، لأن في ذلك مناسبة عجيبة، فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء، فكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض، فلولا العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم.

والمقسم عليه، تنزيه الرسول صلى الله عليه وسلم عن الضلال في علمه، والغي في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتديا في علمه، هاديا، حسن القصد، ناصحا للأمة (١) بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم، وفساد القصد (٢) . "(١) "

قوله: إذا هوى إشعارا بأن النجوم كلها مسخرة لقدرة الله مسيرة في نظام أوجدها عليه ولا اختيار لها فليست أهلا لأن تعبد فحصل المقصود من القسم بما فيها من الدلالة على القدرة الإلهية مع الاحتراس عن اعتقاد عبادتها." (٢)

---

(١) تفسير السعدي ٨١٨

(٢) التحرير والتنوير ٩١/٢٧

فوصف النجوم بالهوي في الآية فيه دلالة على عدم الاعتقاد في عبادتها "

وفي ذكر {إِذَا هَوَى} احتراس من أن يتوهم المشركون أن في القسم بالنجم إقرارا لعبادة نجم الشعرى، وأن القسم به اعتراف بأنه إله إذ كان بعض قبائل العرب يعبدونها فإن حالة الغروب المعبر عنها بالهوي حالة انخفاض ومغيب في تخيل الرائي لأنهم يعدون طلوع النجم أوجا لشرفه ويعدون غروبه حضيضا، ولذلك قال الله تعالى :﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]. "(١)

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة نفي عبادة النجم من دون الله تعالى بعد أن أقسم به فوصفه بالهوي إشارة إلى عدم كماله وأنه غير مستحق للعبادة . ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { إذا هوى }.

٣٤- (إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١) [المنافقون: ١]

" يخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم ينطقون بالإسلام إذا جاؤوا النبي صلى الله عليه وسلم، وهم في الحقيقة على الضد من ذلك، فيقول: إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا: نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ أي إذا قدم المنافقون إليك يا رسول الله مثل عبد الله بن أبي وصحبه، وحضروا مجلسك، أظهروا لك

(١) التحرير والتنوير ٩٩/٢٧

الإسلام، وقالوا: نشهد إنك لرسول الله شهادة تتطابق فيها القلوب مع الألسنة " (١)

"{والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ} أي واللهُ جل وعلا يعلم أنك يا محمد رسولُه حقاً، لأنه هو الذي أرسلك، والجملةُ احتراس جيء به لدفع توهم تكذيبهم في دعوة رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لئلا يتوهم السامع أن قولهم {إِنَّكَ لَرَسُولُ الله} كذبٌ في حدِّ ذاته قال في التسهيل: وقوله {والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ} ليس من كلام المنافقين، وإنما هو من كلام الله تعالى، ولو لم يذكره لكان يوهم أن قوله {والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ} إبطالٌ للرسالة ، فوسَّطه بين حكاية المنافقين وبين تكذيبهم ليزيل هذا الوهم وليحقق الرسالة " (٢)

" وَاللَّهُ– تعالى– يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ في قولهم: نشهد إنك لرسول الله، لأن قولهم هذا يباين ما أخفته قلوبهم المريضة، من كفر ونفاق وعداوة لك وللحق الذي جئت به.

والإيمان الحق لا يتم إلا إذا كان ما ينطق به اللسان، يوافق ويواطئ. ما أضمره القلب، وهؤلاء قد قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فثبت كذبهم في قولهم: نشهد إنك لرسول الله.. "(٣)

---

(١) التفسير المنير ٢١٥/٢٨

(٢) صفوة التفاسير للصابوني ٣٦٢/٣

(٣) التفسير الوسيط ٤٠٠/١٤

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة دفع توهم تكذيبهم في دعوة رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لئلا يتوهم السامع أن قولهم {إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ} كذبٌ في حدِّ ذاته

. ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى {والله يعلم إنك لرسوله}.

٣٥- (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾) [الحاقة: ٢٢، ٢٣]

يبين الله تعالى أن الحياة التي يحياها المؤمن في الجنة، في أسمى درجات الحبور والسرور،

" فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ أى: هذا الذي أوتى كتابه بيمينه، يكون- أيضا- في جنة مرتفعة على غيرها، وهذا لون من مزاياها.

قُطُوفُها دانِيَةٌ أى: ثمارها قريبة التناول لهذا المؤمن، يقطفها كلما أرادها بدون تعب . فالقطوف جمع قطف بمعنى مقطوف، وهو ما يجتنيه الجاني من الثمار، ودانِيَةٌ اسم فاعل، من الدنو بمعنى القرب." (١)

قال ابن عرفة : " هذه الجملة احتراس؛ لأنه تعالى وصفها بالعلو، وشأن المكان العالي أن تكون ثماره كذلك، فأزال ذلك بأنها مع علو ثمارها قريبة التناول، سهلة المأخذ. هـ. والقطوف جمع قطف، وهو ما يحثي بسرعة." (٢)

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة دفع توهم أن ثمار الجنة بعيدة المنال عن أهلها ، فجاء بهذا الاحتراس لبيان أنها قريبة

(١) التفسير الوسيط ٧٩/١٥

(٢) تفسير بن عرفة ١٢٧/٧

منهم ، ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { قطوفها دانية } .

٣٦- (فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبٗا ﴿١٧﴾) [المزمل: ١٧]

" بعد أن ذكر الله أخذه لفرعون، وأن ملكه وجبروته لم يدفعا عنه العذاب، عاد فذكَّر كفار مكة بالقيامة وأهوالها ليبيّن لهم أنهم لن يفلتوا من العذاب كما لم يفلت فرعون مما حدث له فقال"(١)﴿ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ ﴾"أي كيف تحذرون ذلك اليوم لو كفرتم أي إن جحدتم يوم الجزاء فكيف تدعون تقوى الله وخوف عقابه؟ " (٢)

" وفى قوله تعالى: «إِنْ كَفَرْتُمْ» – احتراس، يراد به قيد هذا العذاب الذي يتهددهم، وأنه رهن بما ينكشف عنه موقفهم من النبي.. فهم إلى هذه اللحظة فى سعة من أمرهم، مادام النبي فيهم، وما داموا في الحياة، لم تطو صحف أعمالهم بعد بالموت..

وفى هذا إغراء لهؤلاء المشركين بالإيمان، وإفساح الطريق لهم إليه..

وقد دخل كثير منهم فى دين الله، وأصبحوا مؤمنين،. وهذا هو بعض الحكمة فى قوله تعالى: «وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا» .. وقوله تعالى قبل ذلك: «وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا» ." (٣)

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني ٤٤٤/٣

(٢) تفسير النيسابوري ٣٨١/٦

(٣) التفسير القرآني للقرآن ١٢٦٥/١٥

" يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً الولدان جمع وليد وهو الطفل الصغير، والشيب بكسر الشين جمع أشيب ووزنه فعل بضم الفاء وكسرت لأجل الياء، ويجعل يحتمل أن يكون مسندا إلى الله تعالى أو إلى اليوم ، والمعنى أن الأطفال يشيبون يوم القيامة، فقيل : إن ذلك حقيقة، وقيل:
إنه عبارة عن هول ذلك اليوم ، وقيل : إنه عبارة عن طوله "(١)

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة إغراء هؤلاء الكافرين بالإيمان ما داموا في هذه الدنيا . ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى {إن كفرتم يوما}.

(١) تفسير بن جزي ٤٢٥/٢

المبحث الثاني

الاحتراس الضدي

١- (قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾) [البقرة: ١٣٩]

" كان اليهود والنصارى يدَّعون أن ما عندهم هو دين الله تعالى، وأنهم أعلم الناس بالله، وأنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه، وحسبوا أنهم أقرب إلى الله تعالى لأنهم ليسوا وثنيين ولم يشركوا به أحدا، والوثنيون ليسوا كذلك، وبذلك يحاجون النبي في أنهم أقرب إلى الله، وأنه أقرب إليهم، وأنهم أولى به، فأمر الله تعالى نبيه "(١) " أن يقول لهم: أتجادلوننا في دين الله وهو ملة الإسلام التي بعثني بها للعالمين هدى ورحمة، وتزعمون أن الهداية فيما أنتم عليه من اليهودية والنصرانية، وتستبعدون عليه- تعالى- أن ينزل وحيه على من ليس منكم، بدعوى أنكم أقرب إلى الله منا، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، والحال أنه- سبحانه- هو رَبُّنا وَرَبُّكُمْ أى خالقنا وخالقكم ورازقنا ورازقكم ومحاسبنا ومحاسبكم على ما يصدر منا ومنكم من أعمال . " (٢)

وفائدة عطف " { ولكم أعمالكم } على { لنا أعمالنا } احتراس لدفع توهم أن يكون المسلمون مشاركين للمخاطبين في أعمالهم وأن لنا أعمالنا يفيد اختصاص المتكلمين بما عملوا مع الاشتراك في أعمال الآخرين وهو

---

(١) زهرة التفاسير : ٤٢٨

(٢) التفسير الوسيط ٢٧٨/١

نظير عطف قوله تعالى: ولي دين على قوله: لكم دينكم [الكافرون : ٦] . "([1])

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة دفع توهم أن يكون المسلمون مشاركين للمخاطبين في أعمالهم . ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { لنا أعمالنا ولكم أعمالكم }.

" والله يجازي كل إنسان بعمله، فلا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل الصالح، أما أنتم فقد اعتمدتم على أسلافكم الصالحين، وزعمتم أنهم شفعاء لكم، وأما نحن فنعتمد على إيماننا وعملنا، ونحن لله مخلصون في تلك الأعمال، لا نقصد بها إلا وجهه "([2])

٢- (وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾) [ال عمران: ٤٦]

وهذه هي الصفة الثالثة من صفات نبي الله عيسى عليه السلام أنه يكلم الناس في المهد وهو مازال طفلا رضيعا ، " وهذه الجملة معطوفة على قوله وَجِيهاً وعطف الفعل على الاسم لتأويله به جائز والتقدير وجيها ومكلما ، والمهد اسم لمضجع الطفل أي المكان الذي يهيأ له وهو في الرضاعة . والكهل: هو الشخص الذي اجتمعت قوته وكمل شبابه. وهو مأخوذ من قول العرب اكتهل النبات إذا قوى وتم . ([3])

والمراد أن عيسى- عليه السّلام- يكلم الناس في حال كونه صغيرا قبل أوان الكلام، كما يكلمهم في حال كهولته واكتمال شبابه، فهو- عليه

---

(١) التحرير والتنوير ٧٤٦/١

(٢) صفوة التفاسير للصابوني ٣٣٠/١

(٣) القاموس المحيط ١٩٠/٩ ، ٣٠ / ٣٦٠

السّلام– يكلمهم بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين حالتي الطفولة والكهولة، وذلك إحدى معجزاته– عليه السّلام– "([1])

وفي قوله تعالى {كهلا} احتراس فقد كان في العادة أن من تكلم في المهد لا يعيش ولا يتمادى به العمر فحصل الاحتراس بقوله { كهلا } يريد أنه ليس يموت عاجلا كأمثاله ممن تكلم في المهد بل يعيش إلى ان يبلغ الكهولة ([2])وهو كذلك من الصالحين الذين أنعم الله عليهم بالنبوة والاستقامة وصلاح الحال.

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة نفي الموت عن عسى عليه السلام مبكرا وأنه سيعيش إلى مرحلة الكهولة . ولعل هذا ما يشير اليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { في المهد وكهلا }.

٣- (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾) [المائدة: ٥٤]

" بعد أن نهى الله – تعالى –عن موالاة الكافرين وأخبر أن فاعلها منهم . ذكر استغناءه عن أهل الردة ، واعتماده على صادقي الإيمان الذين يحبهم ويؤثرون حبه من إقامة الحق والعدل على سائر ما يحبون من مال ومتاع وولد." ([3])

---

(١) التفسير الوسيط ١٠٨/٢

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن لابن قيم الجوزية ص ٥٢

(٣) نظم الدرر للبقاعي ٦/ ١٩٠ ، التفسير المنير ٢٣٢/٦

" وهذه الآية خطابٌ على وجه التحذير والوعيد والمعنى: يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ويبدّله بدينٍ آخر ويرجع عن الإيمان إلى الكفر "(١)

وهذه الآية جمعت صفات الأمة الإسلامية التي على الحق والهداية أمثال الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم وبفهمهم ومن هذه الصفات قوله تعالى : {فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} " أجلُّ صفات هؤلاء المؤمنين أن الله {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبدا يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد . ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: {قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} .

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى، والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جدا، بل غير موجودة وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبدا قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل. "(٢)

ومن صفاتهم أنهم {أذلة على المؤمنين} أي: عاطفين عليهم متذللين لهم جمع ذليل، وأمّا ذلول فجمعه ذلل ومن زعم أنه من الذل الذي هو نقيض الصعوبة فقد غبي عنه لأنه ذلولاً لا يجمع على أذلة.

---

(١) صفوة التفاسير الصابوني ٣٢٣/١

(٢) تفسير السعدي ٢٣٥/١

فإن قيل: هلا قال أذلة للمؤمنين؟ أجيب: بأنه تضمن معنى الحنو والعطف كأنه قال: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع وأنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم ، {أعزة على الكافرين} أي: شداد متغلبين عليهم من عزّه إذا غلبه "(١)

وجاء الجمع بين هاتين الصفتين [الذل – العز] على سبيل الاحتراس لتكتمل صفاتهم في أعلى درجاتها ورفعتها ، فهذا الفن البليغ جاء في الآية ليدفع الإيهام الذي كان ليحصل لولا وجوده ، من إثبات كمال الصفات لهذه الطائفة المختارة ، فبعد أن وصفهم بأنه يحبهم ويحبونه ذكر أنهم [أذلة على المؤمنين] ، فدفع ما قد يشوب هذا الوصف للمؤمنين من أن أحدهم قد يتصور أن هذا الذل هو من ضعف وجبن ، فدفعه بما يضاده ويقابله في اللغة بقوله :[أعزة على الكافرين] ، فكانت هذه الجملة احتراسا مما قد يشوب الآية من نقص وعيب فإنه لما كان وصفهم بالذلة يوهم أنه من ضعفهم ، دفع هذا الإيهام بضده بقوله [أعزة على الكافرين] ليبين أن ذلتهم في جانب المؤمنين ما كانت إلا تواضعا منهم بدليل أنهم أعزة على الكافرين ، أي أشداء أقوياء عليهم ، " ولذا عدى الذل بعلى لتضمينه معنى العطف كأنه قيل عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع ويجوز أن تكون التعدية بعلى لأن المعنى أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم "(٢)

---

(١) السراج المنير للشربيني ٣٨٢/١

(٢) الإيضاح للقزويني صـــ ١٩٢

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة لبيان كمال صفات المؤمنين فإنه لما كان وصفهم بالذلة يوهم أنه من ضعفهم ، دفع هذا الإيهام بضده بقوله [أعزة على الكافرين] ليبين أن ذلتهم في جانب المؤمنين ما كانت إلا تواضعا منهم . ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { أذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين } .

وفي هذا الاحتراس في الآية بالجمع بين النقيضين إرشاد وتعليم للمؤمنين وبيان حالهم مع بعضهم ومع عدوهم ، من خلال حسن تعامل أبنائه بعضهم مع بعض ورحمة بعضهم ببعض ، وتكافلهم وتناصرهم ، واتساع صدورهم لإخوانهم ، وقوة شوكتهم على أعدائهم .

" يجاهدون في سبيل الله وفي سبيل نصرة الحق والفضيلة والدين وإعلاء كلمته وفي سبيل خدمة الوطن وأهله، يجاهدون ببذل النفس والنفيس ولا يخافون في الحق وإظهاره لومة لائم. ولا يرجون ثوابا من أحد، ولا يخافون عذابا من أحد، بل تصدر أعمالهم بإخلاص لله ورسوله ، وفي هذا تعريض بالمنافقين في كل عصر وزمان." (١)

" ثم قال تعالى: ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ أي ذلك المذكور من الصفات التي وصف بها القوم: وهي المحبة والذلة للمؤمنين والعزة على الكافرين والمجاهدة وانتفاء خوف اللومة، هو من فضل الله يعطيه من يشاء، ويوفق إليه من يريد، والله واسع، أي ذو سعة فيما يملك ويعطي كثير الأفضال، عليم بمن هو أهلها، فهو تعالى واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك، ممن يحرم منه." (٢) ومثل هذه الآية قوله تعالى (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا

(١) التفسير الواضح ٥٢٨/١

(٢) التفسير المنير ٢٣٢/٦

سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾) [الفتح: ٢٩]

يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة بعضا من صفات أصحاب رسول الله وصفاتهم في التوارة والإنجيل وكيف ان الله تعالى وعدهم جزيل الأجر وعظيم الفضل والثواب والمغفرة ، والمتأمل في هذه الآية الكريمة يجد أن الله تعالى وصف الصحابة رضوان الله عليهم أنهم أشداء على الكافرين لا تأخذهم بهم شفقة ولا رحمة في دين الله ، فالقارئ قد يتوهم أن من عادة الصحابة رضوان الله عليهم الشدة في كل امورهم ، فجاء قوله { رحماء بينهم } احتراسا من أن يظن أن الفظاظة والغلظة عادتهم ، ولكنهم يتصفون بالرحمة فيما بينهم .

٤- (لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾) [الانعام: ١٠٣]

بعد أن بينت الآيات السابقة أن الله تعالى ليس له ولد أوشريك في ملكه وكان كل والد وكل شريك لا بد أن يكون مجانساً لولده وشريكه بوجه، وصل بذلك من وصفه ما اقتضاه المقام من تنزيهه، فقال: {لا تدركه الأبصار }"(١)

والمعنى لا تستطيع الأبصار مهما أوتيت من القوة أن تدرك الله سبحانه وتعالى إدراكا يشابه المخلوقات فالله تعالى " لا تدركه الأبصار في الدنيا، ولا تحيط به لا في الدنيا ولا في الآخرة، فلا أحد يستطيع أن يحيط بكنه عظمته وجلاله على ما هو عليه "(٢)

---

(١) نظم الدرر ٢١٩/٧

(٢) الأساس في التفسير ١٧٢٥/٣

{ وهو يدرك الأبصار} جيء به على سبيل الاحتراس ودفع توهم أن الله بعد أن وُصف بكونه لا تدركه الأبصار ولا تحيط به العقول أن يكون لا وجود له فبين أنه يدرك الأبصار ويحيط بها فما دام الأمر كذلك فهو موجود وثابت لا وهم وخيال فإدراكه الأبصار " معناه أنه تعالى يرى العيون الباصرة رؤية إدراك وإحاطة وشمول، فلا تخفى عليه طرفة عين، ولا يخفى عليه شيء إلا يراه ويعلمه، وإنما خص الْأَبْصارُ لتجنيس الكلام."(١)

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة نفي توهم أن الله إذا كان لا تدركه الأبصار فهو غير موجود فجيء بالاحتراس لبيان أنه يدرك كل الموجودات ولولا هذا الاحتراس لما حققت الآية الغرض الذي سيقت لأجله . . ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { وهو يدرك الأبصار}.

والمعنى " {وهو} مع ذلك يدرككم، بل و {يدرك} ما لا تدركونه من أنفسكم {الأبصار} وهي القوى المودعة في عصبة العين لتدرك بها المبصرات {وهو اللطيف} عن أن يحيط به الأبصار، لأنه يمنع الأسباب عن أن ينشأ عنها مسبباتها، ويوجد أدق الأسباب وأغربها، فلا يستغرب عليه إدراك المعاني لأنه الذي أوجدها {ألا يعلم من خلق} [الملك: ١٤] وأصل اللطف دقة النظر في الأشياء {الخبير*} أي المحيط بالأبصار فإحاطته بأصحابها أجدر، ويتحقق معنى الاسمين لتحقق المعنى؛ قال الحرالي في شرح الأسماء: اللطف إخفاء التوسل إلى الشيء بإظهار ما يضاده، ولا يتم إلا بخبرة، ولذلك نظم باسمه {الخبير} "(٢)

٥- (رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي

(١) التفسير المنير ٣١٦/٧

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٢٢٠/٧

ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾) [ابراهيم: ٣٨]

هذه الآية من جملة دعاء إبراهيم عليه السلام لربه سبحانه وتعالى حيث يقول " يا ربنا إنك وحدك العليم بما تخفيه نفوسنا من أسرار وما تعلنه وتظهره من أقوال، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليك سواء، فأنت يا إلهى لا يخفى عليك شيء من الأشياء، سواء أكان هذا الشيء في الأرض أم في السماء أم في غيرهما .

وإنما ذكر السماء والأرض لأنهما المشاهدتان للناس، وإلا فعلمه– سبحانه– محيط بكل ما في هذا الكون." (١)

قال بن عرفه عند تفسيره لهذه الآية " هذا احتراس لأنها لما تقدمها (رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ) فقد يتوهم أنه أتى بها على جهة الإعلام ولم يقصده في ذلك والإعلام يقتضي الجهالة بالشيء واحترس من ذلك، وقال إني ما أعلمتك إلا بما تعلم لأنك تعلم ما نخفي وما نعلن، ثم قال (وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) فهذا أيضا احتراس لأنه يظن أن علمه قاصر على إبراهيم وأهله وأخذوا منها أن المعدوم شيء لأنه إن كان شيئا فهو معلوم وأن لم يكن شيئا فخرج عن الآية مع أنها أثبت على سبيل العموم في إحاطة علم الله تعالى لكل معلوم، وفيها رد على من يقول إن الله تعالى يعلم الأشياء على الجملة ولا يعلمها على التفصيل لئلا يلزم عليه التفسير وبيانه أن زيدا إذا قام وعلمت بقيامه فقد تغير عليك عن ما كان عليه. " (٢)

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة دفع توهم أن الله تعالى لا يحيط بجميع المعلومات وهذا ما يفهم م الآية السابقة وهي قوله تعالى { ربنا ليقيموا

---

(١) التفسير الوسيط ٥٦٩/٧

(٢) تفسير بن عرفه بتصرف ٤٥١/٢

الصلاة } فجاء بهذه الآية احتراسا لدفع هذا التوهم وبيان أن الله تعالى يعلم السر والعلانية . ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن }.

٦- (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا) [الاسراء : ٨٣]

" يعارض الإنسان ربه في حكمته، ويعترض على قدرته: فيكله إلى نفسه؛ فينتهي به ذلك إلى العجز، وينتهي به العجز إلى السخط، وينتهي به السخط إلى الكفر؛ فمتى كان الإنسان عاجزاً، ساخطاً، موكولاً إلى نفسه، معتمداً على قدرته؛ مستنداً إلى قوته: كان كالأسد الجائع في المهمة القفر؛ إذا توهم أن قوته وبطشه يستطيعان أن يخلقا الفريسة له؛ فيظل هائجاً هادراً مزمجراً؛ يطيح بكل ما حوله؛ فيجلب ذلك إلى نفس الإنسان اليأس، والانزعاج، والكآبة، وغير ذلك من المهلكات التي تبعث في قلبه الشك بربه، وتدفع إلى نفسه القنوط، وتجيل بخاطره حماقات العقل، ونزغات الشيطان وقد ينتهي به ذلك إلى الانتحار. "(١)

" ومعنى أَعْرَضَ ولانا عرضه، ونأى أي بعد، وهذه استعارة، وذلك أنه يفعل أفعال المعرض النائي في تركه الإيمان بالله وشكر نعمه عليه، وناء بجانبه عبارة عن التحيز والاستبداد، ونأى عبارة عن البعد والفراق، ثم وصف الكفرة بأنهم إذا مسهم شر من مرض أو مصيبة في مال أو غير ذلك يئسوا من حيث لا يؤمنون بالله ولا يرجون تصرف أقداره "(٢)

" وجملة {وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً} احتراس من أن يتوهم السامع من

---

(١) أوضح التفاسير لمحمود حجازي ٣٤٧/١

(٢) تفسير بن عطية ٤٨١/٣

التقييد بقوله: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا} أنه إذا زالت عنه النعمة صلح حاله فبين أن حاله ملازم لنكران الجميل في السراء والضراء ، فإذا زالت النعمة عنه لم يقلع عن الشرك والكفر ويتب إلى الله ولكنه ييأس من الخير ويبقى حنقا ضيق الصدر لا يعرف كيف يتدارك أمره. "(١)

ونحو الآية قوله «وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ» وقوله: «فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ» .

" فالآية وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة. كقوله تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ، وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ، إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ [هود: ٩- ١١] . "(٢)

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة دفع توهم أن يكون الإنسان قد عاد إلى رشده وربه بعد رفع الضر عنه ، ولكنه لا زال على حالته تلك من النكران والجحود لأن هذا حاله في السراء والضراء . ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً ﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٢/١٤

(٢) تفسير القاسمي ٤٩٩/٦

المبحث الثالث

الاحتراس المترقي

١- (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾) [البقرة: ١٠٩]

" بعد أن نهى الله سبحانه في الآيات السالفة عن الاستماع لنصح اليهود ورفض آرائهم، ذكر هنا وجه العلّة ، وهي أنهم يحسدون المسلمين على نعمة الإسلام ويتمنون أن يحرموا منها، فهم لا يكتفون بكفرهم بالنبي والكيد له ونقض العهود، وإنما يتمنون أن يرتد المسلمون عن دينهم. "(١)

" وقوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً بيان للون من ألوان الشرور التي يضمرها أهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود، وهو تمنيهم ارتداد المسلمين عن دينهم الحق، إلى الكفر الذي أنقذهم الله- تعالى- منه.

وإنما أسند- سبحانه- هذا التمني الذميم إلى الكثرة منهم، إنصافا للقلة المؤمنة التي لم ترتض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام.

وقوله تعالى: مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ مبالغة في ذمهم بسبب ما تمنوه وأحبوه إذ ودوا- وهم أهل كتاب- أن يحل الكفر محل الإيمان، وفيه إشعار بأن ما

---

(١) التفسير المنير ١/٢٧٠

تمنوه بعيد الحصول لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب، منع صاحبه من الانتقال إلى الكفر." (١)

"وقال: (حسدا من عند أنفسهم) ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية أو غيره على حق يعتقدونه، وإنما هو خبث النفوس وفساد الأخلاق والجمود على الباطل، وإن ظهر لصاحبه الحق؛ ولذلك قفاه بقوله: (من بعد ما تبين لهم الحق) "(٢)

" {من بعدما تبين لهم} في التوراة {الحق} في شأن النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم {فاعفوا} عنهم أي: اتركوهم {واصفحوا} أي: أعرضوا عنهم فلا تجازوهم "(٣)

والاحتراس هنا في قوله { واصفحوا} جاء بطريقة الترقي ، وهو مرتبة اعلى وأرقى من العفو ؛ لأن العفو هو ترك عقوبة المذنب ، " وأما الصفح – بفتح الصاد– مصدر صفح صفحا إذا أعرض لأن الإنسان إذا أعرض عن شيء ولاه من صفحة وجهه، وصفح وجهه أي جانبه وعرضه وهو مجاز في عدم مواجهته بذكر ذلك الذنب أي عدم لومه وتثريبه عليه وهو أبلغ من العفو "(٤) قال الراغب " والصفح: ترك التثريب، وهو أبلغ من العفو، ولذلك قال: {فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره} [البقرة/١٠٩]، وقد يعفو الإنسان ولا يصفح. "(٥)

---

(١) التفسير الوسيط ٢٤٤/١

(٢) تفسير المنار ٣٤٦/١

(٣) السراج المنير للشربيني ٨٦/١

(٤) التحرير والتنوير ٦٧١/١

(٥) المفردات للراغب الأصفهاني صـــ ٥٨٣

وبذلك تتبين بلاغة الاحتراس بأن المخاطبين وهم المؤمنون الكرام هو قدوة في الفضائل ومكارم الأخلاق ، وأن من سماتهم وشمائلهم مخالفة ما تميل إليه النفوس بالجبلة من الانتقام والبطش بأعدائهم ،

" وليس المراد بالعفو والصفح المأمور بهما الرضى بما فعلوا لان ذلك كفر والله تعالى لا يأمر به بل المراد بهما ترك المقاتلة والاعراض عن الجواب عن مساوى كلامهم حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ اى يحكم الله بحكمه الذي هو الاذن في قتالهم وضرب الجزية عليهم او قتل بنى قريظة واجلاء بنى النضير"(١)

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة فالاحتراس يبين صبر المؤمنين على إيذاء أعدائهم طاعة لله وصبرا في سبيله ، واستجابة لأوامره التي تربيهم وتتدرج بهم في مكارم الأخلاق .. ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { فاعفوا واصفحو } .

" ولقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بإثبات قدرة الله تعالى فقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، فإذا أمر الله كان قادرا على نزع الأحقاد من القلوب، والقصاص من الظالمين، وكشف ضلال المنافقين؛ لأنه قادر على كل شيء وقد أكد قدرته سبحانه بالجملة الاسمية وإن المؤكدة، وعموم موضوع قدرته واختصاصه سبحانه وتعالى بالقدرة على كل شيء بتقديم الجار والمجرور على قدير. تعالت قدرته وعظمته وحكمته. "(٢) ومثل هذه الآية قوله تعالى (وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ

(١) روح البيان ٢٠٤/١

(٢) زهرة التفاسير ٣٦٣

أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾) [النور: ٢٢]
(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾) [التغابن: ١٤]

٢- (ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾) [ال عمران: ١٣٤]

" يبين الله – سبحانه– صفات المتقين الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون، والذين أعد لهم– سبحانه– جنته فقال– تعالى– الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ أى الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله في جميع أحوالهم، فهم يبذلونها ابتغاء وجه ربهم في حال يسرهم وفي حال عسرهم، وفي حال سرورهم وفي حال حزنهم، وفي حال صحتهم وفي حال مرضهم، لا يصرفهم صارف عن إنفاق أموالهم في وجوه الخير ما داموا قادرين على ذلك. "(١) ثم يذكر الحق – تعالى – صفة أخرى من صفاتهم فيقول : " (وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ) أي والممسكين عليه الكافّين عن إمضائه مع القدرة عليه ، ومن أجاب داعى الغيظ وتوجه بعزيمة إلى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال، ولا يكتفى بالحق، بل يتجاوزه إلى البغي، ومن ثم كان من التقوى كظمه ، فهم الذين يكظمون غيظهم عن الإمضاء والنفاذ، ويردونه فى أجوافهم، وهذا كقوله فى الآية الأخرى «وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» " (٢)

ومن الصفات التي ذكرها الله تعالى لهؤلاء المتقين " العفو عن الناس فيما أساؤوا به إليهم. وهي تكملة لصفة كظم الغيظ بمنزلة الاحتراس

---

(١) التفسير الوسيط ٢٦٣/٢

(٢) تفسير المراغي ٧١/٤

لأن كظم الغيظ قد تعترضه ندامة فيستعدي على من غاظه بالحق، فلما وصفوا بالعفو عمن أساء إليهم دل ذلك على أن كظم الغيظ وصف متأصل فيهم، مستمر معهم . وإذا اجتمعت هذه الصفات في نفس سهل ما دونها لديها. (١)"

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة دفع التوهم الحاصل من أن الإنسان ربما يكظم غيظه ، ولكنه لا يعفو بل قد ينتقم يوما ما ، أو أن كظم الغيظ يولد دوافع الحقد والضغينة ، فجاء بهذه الصفة على سبيل الترقي عن طريق الاحتراس لتدفع هذا الوهم .

ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { والعافين عن الناس } .

" وقوله: وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، والإحسان معناه الإتقان والإجادة . وأل في المحسنين إما للجنس أى والله- تعالى- يحب كل محسن في قوله وعمله، ويكون هؤلاء الذين ذكر الله صفاتهم داخلين دخولا أوليا .

وإما أن تكون للعهد فيكون المعنى: والله- تعالى- يحب هؤلاء المحسنين الذين من صفاتهم أنهم ينفقون أموالهم في كل حال من أحوالهم، ويكظمون غيظهم، ويعفون عمن ظلمهم . "(٢)

(١) التحرير ٩١/٤

(٢) التفسير الوسيط ٢٦٤/٢

المبحث الرابع

الاحتراس التهكمي

١- (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾) [الحج: ٧٣]

يبين الله – تعالى – في هذه الآية المباركة وجها من أوجه الإعجاز والقدرة الإلهية ، حيث تحدى الله تعالى كل من يعبد إلها غيره أن يطلب منه أن يخلق ذبابة وهي من أحقر الدواب على وجه الأرض ، فينادي ويقول "يا أيها البشر قاطبة جعل مثل أي شبه لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به، فأنصتوا وتفهموا حال تلك المعبودات، وإذا فهم حالها يكون حال عابديها أسوأ، فهم كالأصنام وأسوأ منها، وحالها هو:
إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ أي إن ما تعبدون من غير الله من الأصنام والأنداد لن يقدروا على خلق ذبابة واحدة، حتى ولو تعاون واجتمع لهذه المهمة جميع تلك المعبودات." (١)
وفي قوله تعالى: (ولو اجتمعوا له): احتراس لئلا يعترض المنكر فيقول: لا يمكنهم خلقه فرادى، وإنما يمكنهم ذلك إذا اجتمعوا.

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة نفي استطاعتهم أن يخلقوا شيئا سواء كانوا فرادى أم مجتمعين فالخلق والإيجاد بيد الله تعالى وحده فقط . ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { ولو اجتمعوا له } .

---

(١) التفسير المنير ٢٧٨/١٧

ثم ختم- سبحانه- الآية الكريمة بما يدل على عجز الخاطف والمخطوف منه فقال:

ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ.

قال الآلوسى: " والطالب: عابد غير الله- تعالى- والمطلوب: الآلهة، وكون عابد ذلك طالب لدعائه إياه، واعتقاده نفعه، وضعفه لطلبه النفع من غير جهته، وكون الآخر مطلوبا ظاهرا كضعفه.

وقيل: «الطالب الذباب يطلب ما يسلبه من الآلهة، والمطلوب: الآلهة، على معنى المطلوب منه ما يسلب. "(١).

وعلى أية حال فإن هذا التعليل يدل دلالة واضحة على عجز كل معبود باطل، وأنه قد تساوى في عجزه مع أضعف مخلوقات الله وأحقرها. (٢)

٢- (ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾) [المرسلات: ٣٠، ٣١]

في هذه الآيات الكريمة يبين الله بعضا من عذاب المكذبين بالبعث والنشور فيقول لهم { انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب } هذا الظل ليس كبقية الظلال التي يتوهم ان بها راحة ونعيما ، فجيء هنا بالاحتراس ليدفع هذا التوهم فيقول "انطلقوا إلى ظل!! يا سبحان الله، الظل الذي يتفيؤه الإنسان ويتخذه مقيلا لراحته هو الظل الممدود الذي لا ينفذ منه حر ولا قر، ولا نار ولا لهب، وهذا هو الظل المعد لأصحاب اليمين، أما الظل المعد للكفار فعذاب أليم، ودخان من يحموم لا بارد ولا كريم،

(١) تفسير الآلوسي ٩٧/١٢

(٢) التفسير الوسيط ٣٤٤/٩

هو ظل ذو ثلاث شعب، فهو يحبس الأنفاس، ويكوى بالنار، ويرمى بالشرار، ظل ليس ظليلا واقيا من وهج الشمس أو لفح النار وليس يقي من اللهب، ظل ناره ترمى بشرر كالقصر أو الجمالات الصفر، فهو ظل جهنمي والعياذ بالله فهو نوع من العذاب شديد، فهو دخان أسود قاتم يملأ الخافقين منعقد من نار تلظى، وانظر إلى وصف الشرر بأنه كالبيت في الضخامة ثم هو كالجمال في الشكل والخفة وسرعة الحركة واللون، وإنه لحقا تنزيل رب العالمين!!" (١) ومثل هذه الآية قوله تعالى (وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾) [الواقعة: ٤٣، ٤٤]

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة نفي توهم أن يكون الظل الوارد في الآية هو الظل الذي يرتاح فيه الإنسان من حر الشمس ، وإنما المراد به شيئا آخر وقد جيء به هنا على سبيل التهكم . ولعل هذا ما يشير اليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { لاظليل ولا يغني من اللهب }.

٣- (لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ﴿٦﴾ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ﴿٧﴾) [الغاشية: ١ : ٧]

يخبر الله تعالى عن الوجوه الشقية أنهم لن يكون لهم طعام إلا الضريع " والضريع: هو شجر في النار يشبه الشوك، فيه ما فيه من المرارة والحرارة وقبح الرائحة.

وقوله: يُسْمِنُ من السّمن– بكسر السين وفتح الميم– وهو وفرة اللحم والشحم في الحيوان وغيره. يقال: فلان أسمنه الطعام، إذا عاد عليه بالسمن.

---

(١) التفسير الواضح ٨٠٦/٣

وقوله يُغْنِي من الإغناء ودفع الحاجة. يقال: أغنانى هذا الشيء عن غيره، إذا كفاه واستغنى به عن سواه. أى: أن أصحاب هذه الوجوه التعيسة بجانب شرابهم من الماء البالغ النهاية في الحرارة، لهم- أيضا- طعام من أقبح الطعام وأردئه وأشنعه وأشده مرارة.. هذا الطعام لا يأتى بسمن، ولا يغنى من جوع، بل إن آكله ليزدرده رغما عنه.

فأنت ترى أن الله- تعالى- قد أخبر عن أصحاب هذه الوجوه الشقية بجملة من الأخبار المحزنة المؤلمة، التي منها ما يتعلق بهيئاتهم، ومنها ما يتعلق بأحوالهم، ومنها ما يتعلق بشرابهم، ومنها ما يتعلق بطعامهم. "(١)

فقوله تعالى { لا يسمن ولا يغني من جوع} جاء هنا من باب الاحتراس فقد يتوهم البعض أن لهم طعاما معينا مخصصا من يشبعون ويأكلون ، ويملؤون بطونهم لكن الله أبطل لهم هذه الأمال وقال { لا يسمن ولا يغني من جوع}

" ووصف ضريع بأنه لا يسمن ولا يغني من جوع لتشويهه وأنه تمحض للضر فلا يعود على آكليه بسمن يصلح بعض ما التفح من أجسادهم، ولا يغني عنهم دفع ألم الجوع، ولعل الجوع من ضروب تعذيبهم فيسألون الطعام فيطعمون الضريع فلا يدفع عنهم ألم الجوع." (٢) أعاذنا الله من جهنم وحرها وضريعها آمين .

والغرض من الاحتراس الوارد في الآية الكريمة نفي توهم ان يكون الطعام المقدم لأهل النار مما يشبع منه الإنسان أو يغنيهم عن الجوع والعطش ، بل هو نوع

(١) التفسير الوسيط ٣٤٤/٩

(٢) التحرير والتنوير ٣٠ /٢٦٤

آخر من العذاب . وصدق الله إذ يقول حكاية عن أهل النار حين تحدثوا مع اهل الجنة (وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠) [الاعراف: ٥٠]

ولعل هذا ما يشير إليه الاحتراس الوارد في قوله تعالى { لا يسمن ولا يغني من جوع }.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصل اللهم على سيدنا ومولانا محمد صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر ، وعلى آله وصحبه وسلم .. وبعد ؛

فقد وصلت إلى نهاية هذا البحث – بحمد الله وفضله وكرمه – ولقد كانت رحلة عظيمة غنية ، أسأل الله بركتها ، ولقد قمت في هذا البحث بدراسة { الاحتراس } في مؤلفات القدماء والمحدثين من علماء البلاغة العربية ، ثم تتبعت شواهده في رياض القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ثم توصلت في نهاية المطاف إلى نتائج مفيدة منها :

١- كثرة ورود هذا اللون في القرآن الكريم ، وأنه جاء مرتبطا بنظم الآيات وله تعلق بمضمون الآية وبالغرض العام .

٢- الاحتراس فن أصيل وطريقة من طرق الإطناب استعملته العرب في نثرها وشعرها لأغراض بلاغية متعددة ما كانت لولا فن الاحتراس . وازداد هذا الفن أصالة وحضورا وفنا في القرآن الكريم .

٣- تبين للباحث أن فن الاحتراس ورد عند علماء البلاغة قديما بتسميات متعددة مثل التكميل والاحتراز فضلا عن الاحتراس ، ولكنها تتشابه في المضمون والمفهوم إلى حد التوحد في المعنى .

٤- بين هذا البحث الفرق بين الاحتراس والتكميل والفرق بين الاحتراس والتتميم ، حيث إن كثيرا من العلماء خلطوا التكميل بالتتميم ، وساقوا في باب التتميم شواهد التكميل ، كما بين هذا البحث الفرق بين الاحتراس والانفصال .

٥- نظر البحث إلى فن الاحتراس في القرآن الكريم من حيث

مضامينه لذلك قسمه إلى أربعة أقسام هي الاحتـــراس الضـــدي ، والتكميلي ، والتهكمي ، والمترقي ، في حين نظر البلاغيون إليه من حيث موقعه في وسط الكلام وآخره لذلك جعلـــوه ضـــربين حسب موقعه . ولا يخفى أن التقسيم الرباعي الذي ارتضيناه هو أجدى في دراسة الاحتراس على صعيد الدلالة وجمالياته ، مـــن التقسيم الثنائي الموقعي عند البلاغيين .

٦- تبين للبحث أن بلاغة الاحتراس تتركز في توجيه مسار المعنى ودفع كل إيهام يعمل فساده ، فالاحتراس القرآني يوجه الكلام نحو المقصود ويطرد كل وهم يتوهمه المخاطب وهو يتلقـــى الآيـــات التي تشكل فيها الاحتراس ، فضلا عن أن الاحتراس يعمق الدلالة ويزيدها توكيدا ووضوحا .

ولا أزعم أنني وصلت في هذا البحث إلى درجة الكمال فالكمال لله وحده فإن كنت قد وفقت ، فذلك الفضل من الله وإن كنت قد قصرت في بعض الجوانب ، أو جانبني الصواب ، فأنا بشر والبشر ديـــدنهم التقصير ، وفي طبعهم الخطأ .

وفي الختام فإن الباحث في علوم القرآن الكريم وبيانه يعيش مع القرآن بعقله وروحه ، فيحس بجمال القرآن ولمساته البيانية ، وينشـــرح صدره ، ويزداد يقينه بأن هذا القرآن تنزيل من حكـــيم حميـــد ، اللهم زدنا إيماناً بكتابك ، واهتداءً بفرقانك ، واشرح به صدورنا ، ونور به قلوبنا ، ووفقنا لتلاوته وحفظه والعمل بما فيه ، وآخـــر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا ومولانا محمـــد وعلـــى آلـــه وصـــحبه وسلم ....

فهرس المراجع والمصادر

١. الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي ط/دار الحديث بالقاهرة.
٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للإمام أبى السعود ، طبعة دار الفكر .
٣. أسباب نزول القرآن للإمام الواحدي ت/ السيد أحمد صقر ط/ دار القبلة للثقافة الإسلامية ، الطبعة الثانية ١٤٠٤ه – ١٩٨٤م .
٤. الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام ، ط/ دار المعرفة بيروت .
٥. إعراب القرآن وبيانه للشيخ محيى الدين درويش ، ط/ دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، ط/ دار اليمامة – دمشق – بيروت ، ودار ابن كثير دمشق – بيروت الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ .
٦. الإيضاح للخطيب القزويني ، ط/ دار الجيل – بيروت – ت / د: محمد عبد المنعم خفاجي ، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ – ١٩٩٣ .
٧. البحر المحيط لأبى حيان الأندلسي ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م ،ت/د: أحمد النجولي الجمل وآخرين.
٨. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزملكاني ت/ د: أحمد مطلوب ود/ خديجة الحبيسي ط/ العاني –بغداد– .
٩. بصائر ذوي التمييز ط مطبعة نهضة مصر / تحقيق محمد على النجار ، الطابعة الخامسة : ١٤٢٩ه– ٢٠٠٨م
١٠. البلاغة العربية للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ط دار القلم دمشق ، الدار الشامية بيروت الطبعة الأولى .
١١. بيان المعاني في تفسير القرآن ملا حويش آل غازي عبد القادر ط/ مطبعة الترقي – دمشق – ١٣٨٢ هـ
١٢. تاج العروس من جواهر القاموس للزَّبيدي الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: الأولى /١٤١٤ هـ .

١٣. التبيان في علم المعاني والبديع البيان للعلامة شرف الدين الطيبي ت/ د: هادي الهلالي ، ط/ مكتبة النهضة العربية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـــ – ١٩٨٧م
١٤. التحرير والتنوير ، ط/ دار سحنون بتونس للنشر والتوزيع .
١٥. التسهيل لتأويل التنزيل للشيخ مصطفى العدوي ط/ دار السنة ، الطبعة الأولى ١٤١٥ه – ١٩٩٥م
١٦. التصوير البياني "دراسة تحليلية لمسائل البيان "د/ محمد محمد أبو موسى ، ، ط/ مكتبة وهبه ، الرابعة ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م .
١٧. التصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن د/ محمد محمد أبو موسى ، ط/ مكتبة وهبه ، الرابعة ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م .
١٨. تفسير الأجزاء العشرة للإمام الأكبر محمود شلتوت ، ط/ دار الشروق ،الطبعة الثالثة عشرة ٢٠٠٩م
١٩. التفسير الشامل للدكتور/ أمير عبد العزيز، طبعة دار السلام للنشر والتوزيع ،القاهرة مصر ، الطبعة التاسعة ،٢٠٠٧,١٤٢٨ .
٢٠. تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل للإمام القاسمي ، ت/ محمد فؤاد عبد الباقي ، طبعة دار الفكر –بيروت– الطبعة الثانية ١٣٩٨ه – ١٩٧٨م
٢١. تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ، ط/ دار الفكر ـــ بيروت ـــ الطبعة الثانية .
٢٢. تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ، طبعة دار الفيحاء ودار السلام ،الطبعة الأولى .١٤١٤ه – ١٩٩٤
٢٣. التفسير الكبير أو تفسير مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي ، طبعة دار الغد العربي ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .
٢٤. تفسير المراغي للأستاذ / أحمد مصطفى المراغي ، ط / دار الفكر .
٢٥. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للدكتور / وهبه الزحيلي ، ط/ دار الفكر – دمشق – سوريا ، الطبعة التاسعة ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م

٢٦.التفسير الواضح ــ ، للدكتور / محمد محمود حجازى دار النشر: دار الجيل الجديد
٢٧.التفسير الوسيط للشيخ الدكتور/ محمد سيد طنطاوي ، ط/دار السعادة بالقاهرة .
٢٨.جامع البيان في تفسير القرآن للإمام بن جرير الطبري ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – ، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ ١٩٩٧م
٢٩.الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، تحقيق الدكتور /محمود حامد عثمان ،والدكتور/محمد إبراهيم الحفناوى ،طبعة دار الحديث بالقاهرة
٣٠.جواهر الأدب في معرفة كلام العرب لعلاء الدين الإربلي ، ت/ د: حامد أحمد نيل ، توزيع مكتبة النهضة المصرية ١٤٠٤ه- ١٩٨٤م
٣١.حاشية القونوي ط/ دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان
٣٢.حاشية زادة لي على تفسير البيضاوي ، ط/ مكتبة الحقيقة ، – استانبول – تركيا
٣٣.حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن للشيخ / محمد الأمين الهرري الشافعي ، ط/ دار طوق النجاة –بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م
٣٤.خزانة الأدب وغاية الأرب للإمام تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري ، ط/ دار ومكتبة الهلال – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧ ، ت : عصام شعيتو
٣٥.خصائص التراكيب " دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني " د/ محمد محمد أبو موسى ، ط/ مكتبة وهبه الخامسة ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م
٣٦.خصائص التراكيب " دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني " د/ محمد محمد أبو موسى ، ط/ مكتبة وهبه الخامسة ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م
٣٧.الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي ، ط دار الفكر – بيروت .
٣٨.دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى ، ط/ مكتبة وهبه ، الرابعة ١٤١٨ هـ ١٩٩٧م .

٣٩.دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني ، ت: محمود محمد شاكر طبعة / مطبعة المدني القاهرة –جدة– الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م .
٤٠.ديوان ذي الرمة – بدون –
٤١.ديوان طرفة بن العبد – بدون –
٤٢.روح البيان لإسماعيل حقي الناشر: دار الفكر – بيروت
٤٣.روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام محمود الآلوسي ، طبعة دار الفكر، – بيروت – ١٤١٧هـ – ١٩٩٧ .
٤٤.زاد المسير في علم التفسير للإمام بن الجوزي ، ط/ دار الفكر – بيروت – ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ه ، ١٩٨٧م .
٤٥.زهرة التفاسير للشيخ محمد أبو زهرة ، طبعة دار السلام للنشر والتوزيع ، القاهرة مصر ، الطبعة التاسعة ،١٤٢٨,٢٠٠٧.
٤٦.السراج المنير في تفسير كلام الحكيم الخبير للخطيب الشربيني ، طبعة دار السلام للنشر والتوزيع ،القاهرة مصر ،الطبعة التاسعة ، ١٤٢٨,٢٠٠٧.
٤٧.سنن النسائي ، ط/ دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩١ تحقيق : د.عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن
٤٨.صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي الناشر : دار الفكر – دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧ ، تحقيق : د.يوسف علي طويل
٤٩.صفوة التفاسير للشيخ الصابوني ، ط دار الصابونى ، بالقاهرة ، الطبعة التاسعة .
٥٠.الصناعتين لأبي هلال العسكري المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت عام النشر: ١٤١٩ هـ
٥١.الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. للإمام / يحيى بن حمزة العلوي اليمني ، تحقيق / محمد عبد السلام هارون . ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، بدون تاريخ .

٥٢.العين للخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي ، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي ، الناشر: دار ومكتبة الهلال
٥٣.فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لشيخ الإسلام أبي يحيى زكريا الأنصاري ، ت/ محمد علي الصابوني ، ط/ عالم الكتب ،
٥٤.الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، طبعة دار إحياء الكتب العربية فيصل عيسى البابي الحلبي .
٥٥.الفروق اللغوية لأبي الهلال العسكري ، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة – مصر .
٥٦.في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ، ط/ دار الشروق – بيروت– القاهرة الطبعة السابعة عشر ١٤١٢ هـ
٥٧.قطف الأزهار في كشف الأسرار للإمام السيوطي ت/ أحمد محمد الحمادي ، ط/ وزارة الأوقاف بقطر ١٩٩٢م
٥٨.الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام الزمخشرى ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥مـ
٥٩.كشف الأسرار لعلاء الدين البخاري طبعة دار الكتاب العربي بيروت – لبنان–.
٦٠.الكليات لأبى البقاء الكفومى ،تحقيق عدنان درويش ،ط مؤسسة الرساله –بيروت– ١٤١٩هـ،١٩٩٨م
٦١.لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام الخازن ، ط/ دار الفكر ١٣٣٩ه – ١٩٧٩م .
٦٢.لسان العرب للإمام بن منظور ، ط/ دار صادر – بيروت الطبعة الأولى .
٦٣.المثل الثائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ت: محمد محي الدين عبد الحميد ط/: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت
٦٤.المجيد في إعجاز القرآن المجيد لكمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني ، ط/ دار عمار .

٦٥.المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للإمام بن عطية ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، طبعة دار الكتب العلمية –بيروت– لبنان
٦٦.المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي ، المكتبة العلمية – بيروت .
٦٧.مصنف عبد الرزاق ، ط/ المكتب الإسلامي – بيروت ، ت : حبيب الرحمن الأعظمي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ .
٦٨.معالم التنزيل للإمام البغوي ، الطبعة : الأولى الناشر : دار السلام للنشر والتوزيع – الرياض : ١٤١٦هـ
٦٩.معاني القرآن وإعرابه للنحاس ط/ جامعة أم القرى – مكة المكرمة الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ تحقيق : محمد علي الصابوني
٧٠.من بلاغة القرآن د/ عبد الحميد العبيسي – بدون–
٧١.من خصائص التعبير القرآني ، د/ محمد محمد أبو موسى ط/ مكتبة وهبه .
٧٢.مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني تحقيق: فواز أحمد زمرلي دار النشر: دار الكتاب العربي بيروت الطبعة: الأولى ، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م
٧٣.نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي ، طبعة دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة .
٧٤.النكت والعيون للماوردي ط : دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم .
٧٥.النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ت/ طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي ، ط/ دار الفكر بيروت ، الثانية ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .